الإسلام وأصول الحكم

بحث فى

الخلافة والحكومة فى الإسلام

تأليف الشيخ

على عبد الرازق

من علماء الجامع الأزهر، وقضاة المحاكم الشرعية

«الطبعة الأولى»

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

●

دار الهلال

ينفرد كتاب الهلال بنشر مذكرات الشيخ على عبدالرازق حول كتاب الإسلام وأصول الحكم، وهى المذكرات التى يقدمها ابن أخيه السفير ممدوح عبدالرازق من خلال المقدمة وفيها يقدم لنا المناخ السياسى والثقافى والإجتماعى وقت صدور هذا الكتاب الذى أحدث دويا مازالت اثاره حتى الآن.

الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

تقديم

بقلم: السفير ممدوح عبدالرازق

منذ شرعت أخط هذه السطور لتقديم طبعة جديدة من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ، وسؤالان يلحان على من داخلى إلحاحا شديدا، أولهما ذو طبيعة خاصة إذ ينبع من صلة الأعصاب والأرحام التى تربطنى بالمؤلف، ويكون من تأثيرها أن تلقى ولو ظلالا من شبهة الانحياز على موقفى من الكتاب وتقييمى لقدره وقدر مؤلفه ؛ مهما كان مبلغ حرصى على الالتزام بالموضوعية وتجنب الميل مع العواطف والأهواء ؟

فموقعى من المؤلف يجمع بين موقع الابن من أبيه وموقع الطالب من أستاذه ومربيه فى الوقت نفسه ، وتفصيل ذلك أن أبى رحمه الله توفى ولم أجاوز من العمر خمسة عشر ربيعا، فكفلنى وأختى شقيقه على عبد الرازق فنشأنا فى كنفه لا يفرق بيننا وبين أولاده وبناته شىء فى المعاملة أو القرب منه أشد الاقتراب، حتى أننا لا يمر بخاطرنا إلى اليوم ذكر الوالدين طيب الله ثراهما، وما أكثر ما يمر، إلا وترحمنا على

مصطفى وعلى معا، فكلاهما، وقد كانا أشقاء بالروح فوق رابطة الأخوة، له فى تنشئتنا، وفى أدق مراحل التكوين، أثر ونصيب وفضل غير منكور .

ولا أدعى أن فى ذلك وحده ما يرفعنى دون غيرى درجات إلى مرتبة الأهلية، لتقديم كتاب لا أحسبنى مبالغا إذا عددته من بين العلامات البارزة على طريق تطور الفكر العربى والإسلامى، إلا أن يكون لدى جديد ، فى المنهج والمضمون جميعا يمكن أن يضيف إلى مغزى إعادة طبع الكتاب فى شكل وإخراج يتناسب ومرور خمسة وسبعين عاما كاملة على صدور طبعته الأولى .

أما التساؤل الآخر، فذو طبعة عامة؛ إذ يتعلق بما يستطيع مثلى أن يقدمه مما يعد جديدا بعد كل ما كتب ونشر وقيل على مدى هذه السنين عن المؤلِف والمؤلَف ؟ وهل فقد الكتاب ذاته جدته بعد مضى كل هذه السنين وبعد كل التغيرات والمستجدات التى طرأت، وقد سرنا اليوم فى قرن آخر، على الواقعين المحلى والعالمى ؟ وما تأثير هذه التطورات والمستجدات فى قدرة الأجيال المعاصرة على فهم وتقدير هذا البحث الذى يرجع بتاريخ تأليفه ونشره والأحداث التى أحاطت به إلى زمان آخر وواقع محلى وعالمى آخر ؟

وكل من التساؤلين كان ما يزال يلح على عندما شرعت أخط هذه السطور ، دون أن أجد له فى داخلى إجابة شافية ، فقد أسلمت قلمى لتداعى الخواطر الذى يثيره فى النفس ذكر على عبد الرازق الوالد والمفكر، وذكر كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، والمناخ الفكرى والثقافى والسياسى والاجتماعى الذى كان سائدا فى مصر وقت صدور الكتاب ووقت محاكمة المؤلف، واعيا إلى أن الناتج النهائى قد لا يكون مطابقا للمواصفات المتعارف عليها كمقدمة لمثل هذا البحث الذى يتصل بالدين ويتصل بالسياسة ويتصل بعد هذا بقضية حرية الفكر والاجتهاد والبحث والنظر العقلى .

وسأجتهد فى أن أبسط أمام القارىء مما توافر لدى وألقته المقادير بين يدى ، بما قد يسهم فى إنارة السبيل أمامه كى يقرأ الكتاب متحررا من أية انطباعات مسبقة بنفسه ويفهمه بنفسه ويقيمه فى النهاية مستقلا عن أى تأثير خارجى، وقد أتوارى فى مواقع كثيرة وراء شهادات المعاصرين عن قرب للوقائع والأحداث والأشخاص .

ولا أعد نفسى فى موقف الدفاع عن أحد ولا المواجهة مع أحد، فلم تكن هناك فى الحقيقة معركة أصلا بين المؤلف وبين أحد إلا الذين كان يهمهم لاعتبارات سياسية ودنيوية خالصة - كما سنبين فيما بعد - أن يدعموا عروشهم بسلطان الدين تحسبا لتداعيات حركة التحرر الوطنى

والتى كانت نذرها قد بدأت تتجمع فى سماء مصر منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولجأوا فى سبيل ذلك، وبالتحديد من أيام الخديو عباس حلمى الثانى إلى تشديد قبضتهم على الأزهر وخنق أية حركة للإصلاح والتجديد داخله مثل تلك التى قادها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأبناء مدرسته من بعده ومن بينهم الشقيقين مصطفى وعلى عبد الرازق .

وقد كان المؤلف ذاته واعيا منذ صدور كتابه إلى هذه النوعية من القراء التى سوف يستشكل عليها فهم حقيقة أن هذا الكتاب المحدود فى عدد صفحاته مثل السهم النافذ الموجه إلى هدف معين فى توقيت معين، ولهذا نجده يكتب فى مقدمة الكتاب «بل قد أكون اكتفيت أحيانا بإشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتها، وبتلويحات قد تفوتهم دلالاتها، وبكنايات توشك أن تصير عليهم ألغازا، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة وحقيقة ربما حسبوها مجازا» .

ولا أريد أن أوحى للقارىء منذ الآن بما أريده أن يستخلصه بنفسه ولنفسه عن مرامى الحملة التى واجهت الكتاب والمؤلف وقت صدوره، وعما إذا كانت بتدبير سياسى، ومن عساه كان وراء هذا التدبير، والذى ربما يتضح بشكل أكبر مما خطه المؤلف رحمه الله بيده بعد مرور السنين فى وريقات ولم تكتمل ولم تنشر ومن السهل حساب تاريخها من مقدمتها ذاتها فيقول :

«ظهر هذا الكتاب منذ نيف وثلاثين عاما، وكان الجزء الذى صدر منه مختصا بالبحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام .

وذلك بحث يبدو لأكثر الناس أنه متصل بالإسلام من قرب فى عقيدته وشريعته، وهو مع ذلك يتصل اتصالا وثيقا بالسياسة ونظام الحكم .

وكثير من الناس فى كل عصر وكل دولة قد نصبوا أنفسهم خداما لسلطان السياسة وسلطان الدين، وقد ظن أولئك وأشباههم أنهم قد وقعوا من هذا الكتاب على مكان دعوة تهدد كلا من الدين والسياسة بخطر كبير وشر مستطير فهبوا يستصرخون المسلمين إلى محاذر هذا الكتاب وما به من دعوة ضد الدين ترمى إلى نسف بنائه وتضليل أبنائه .

وسارع إليهم أفواج شتى من رجال السياسة ورجال الدين ومن محترفى السياسة ومحترفى الدين ، ومن آخرين لا ينتمون إلى هؤلاء ولا هؤلاء ولكن يحملون الحطب يلقونه على كل نار .

كانت معركة مشبوبة السعير ضد ذلك الكتاب ومؤلفه تولى كيدها أولو الحكم والسلطان فى ميدان السياسة وميدان الدين معا .

ولتفصيل ما أورده المؤلف مجملا فى الفقرة السابقة لجأت إلى بعض ما قيده من مذكرات عن هذه الفترة وبتاريخ السبت

١٩٢٥/٦/١٠ حيث يكتب: كان الهجوم قويا لم يترك مدبروه ثغرة يمكن مدافعتهم منها بل أحكموه إحكاما ونشطوا فى إمداده بكل أنوا ع الحيلة ووسائل الرغبة والرهبة ، حتى خشى معارفنا أن يزورونا فى البيت وصاروا يحسبون الاقتراب منا أو من البيت عصيانا للملك وخروجا عليه.

ثم هو يضيف بتفصيل ووضوح أكثر «وما كان المهيجون ليفعلوا بعض الذى فعلوا لولا أن الملك فؤاد أراد ذلك فأمرهم عن طريق حسن نشأت باشا ففعلوا» .

وكذلك أراد الملك أن تتحرك العامة ضدى فاندس من العلماء بينهم من يحرضهم على كتابة التلغرافات للجرائد فظهرت المطالبات بمصادرة الكتاب ومحاكمتى .

وسوف نحاول أن نوضح الصورة أكثر أمام القارىء المعاصر وسوف نلجأ فى سبيل ذلك إلى ما لم ينشر من قبل من مذكرات شخصية ، لا نعتمد على ما جاء بها لولا أننا مطمئنون إلى ثقة هؤلاء الذين مازالوا يعرفون أقدار الرجال، فى صدق ومصداقية من تركوها وراءهم، شاهدا على العصر بوقائعه وأشخاصه .

وبما أن شخصية الأمير أحمد فؤاد، سلطان مصر منذ ١٩١٧، ثم أول ملوكها فى العصر الحديث وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير

١٩٢٢ الذى استردت به مصر أهليتها الدولية واستقلالها وإن كان منقوصا يومئذ، تبدو الشخصية المحورية فيما جرى حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» سواء فيما خطه قلم المؤلف نفسه تسجيلا لوقائع هذه الفترة أو ما كتبه عنها غيره فى مراحل لاحقة وهو مازال متصلا وكثيرا، فسنحاول أن نتلمس ملامح هذه الشخصية ودوافعها وطموحاتها حتى قبل أن تعتلى مقعد الإمارة أو السلطنة، وسنلجأ فى سبيل ذلك إلى المذكرات الشخصية لشقيق على، مصطفى عبد الرازق والذى كانت تجمعه بالأمير علاقة طيبة منذ عام ١٩١٥ حيث ورد بالمذكرات تسجيل لأول لقاء بين الاثنين بتاريخ ١٦ ابريل ١٩١٥، فيقول: «لقينا الأمير بحفاوة وأخذ يحدثنا عن وجوه الإصلاح العلمى الذى تحتاجه البلاد حديثا طويلا، ويظهر أنه ميال إلى بعث نهضة علمية وبخاصة فى الأدبيات وأنه من أنصار تحرير المرأة» .

تكلم معنا أخو السلطان ساعة بلسان عربى تشوب لهجته عجمة لا تكاد تخلو منها لهجة أمير من أمرائنا، وقد لا يكون الحكم على الأمير فؤاد ميسورا فى أول زيارة لأن الزائر مضطر بحكم التقاليد إلى أن يتجنب المناقشات ولأن المضيف يتحرى أحاديث مختارة موضوعاتها.

لكن الذى وقع فى نفسى من أثر هذه الزيارة هو أنه رجل بسيط

صريح فيه نشاط وعزيمة وإن كان ذكاء متوسط إلا أنه يفهم على وجه صحيح كثيرا من حاجاتنا الاجتماعية .

أما الفقرتان التاليتان من المذكرات فهما اللتان تستحقان التوقف عندهما والتأمل فى مدلولهما، بعد أن مهدنا لهما بالفقرة السابقة التى تبين نشأة العلاقة بين مصطفى عبد الرازق والأمير أحمد فؤاد .

وأولهما بتاريخ السبت ١٧ فبراير ١٩١٧، أى بعد مرور ما يقرب من عامين من نشوء هذه العلاقة، ويرد بها «رجانى الأمير فؤاد من مدة أن أعينه على جمع ملخص لما كان يدعى به للملوك والسلاطين فى خطبة الجمعة فى أدوار التاريخ الإسلامى ، وقد بحثت الموضوع وجمعت خلاصة منه، ووددت لو أتى وفيت البحث بعد ذلك خدمة للتاريخ والعلم» .

ثم لا تمضى سوى أيام ثم نجد بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩١٧ ما نصه، «سلمت الأمير فؤاد ما جمعت من موضوع الدعاء للملوك فى خطبة الجمعة وقد فهمت من حديثه معى أنه يأخذ أهبته بمثل هذا البحث للمفاوضة المنتظرة فى أمر الخلافة وكأنه يأمل أن تنال مصر استقلالها فيكون واليها خليفة، وأن إنجلترا سوف تساعدها على الاستقلال فتصبح لها الخلافة ثم تنتفع (انجلترا) باستقلالها وخلافتها» .

ويعلق صاحب المذكرات «قد لا يهمنا أمر الخلافة بالقدر الذى يهم الأمير، ولكن استقلال مصر أمنية يهمنا أن نسلك إليها كل سبيل» .

هذا الحديث جرى قبل شهور معدودات من وفاة السلطان حسين كامل يوم ٩ اكتوبر ١٩١٧، وتولى أخيه فؤاد خلفا له فى مقعد السلطنة، ولا أحسب إلا أن صاحب المذكرات كان صادقا فيما دونه، ورغم إيجازه، إلا أنه يكفى لتوضيح أن فكرة انتقال الخلافة من الآستانة إلى القاهرة كانت مختمرة فى ذهن أحمد فؤاد حتى قبل أن يتولى العرش، والجديد فى ذلك أيضا أنه كانت ثمة مفاوضات منتظرة أو تجرى فى الخفاء مع بريطانيا حول هذا الموضوع، الذى لم يعد إليه صاحب المذكرات مرة أخرى، وهى تتوقف على كل حال عند عام ١٩٢٢، أى قبل أن يأخذ التحرك حول موضع الخلافة شكلا حاسما .

ورغم أن الأحداث فى دولة الخلافة العثمانية وقت كتابة هذه الفقرات من المذكرات، عام ١٩١٧، لم تكن قد بلغت ذروتها، إلا أنه كان قد بات من الواضح تخلخل قبضة الحكومة العثمانية على زمام الأمور، وخاصة خلال السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ (وقد انحازت تركيا فى هذه الحرب إلى جانب ألمانيا كما هو معروف) وقد توالت خلال تلك السنة هزائم الجيوش العثمانية، مما دفع الانجليز إلى التفكير فى البحث عن بديل، بعد انتهاء الحرب، للنظام الإقليمى السائد فى منطقة الشرق الأوسط والتى كانت الخلافة العثمانية حتى ذلك الوقت قطبه ومركزه .

والخوض فى حقيقة وتفصيل الظروف السياسية التى كانت سائدة فى منطقة الشرق الأوسط وعالميا، وتأثيراتها على سياسة بريطانيا العظمى ومخططاتها لمستقبل المنطقة التى تقع على تخوم ممتلكاتها الأخرى شرق قناة السويس، بعد انتهاء الحرب يحتاج إلى جهد مستقل تخصص له أضعاف المساحة المتاحة لمثل هذا التمهيد .

وأعود مرة أخرى إلى مذكرات الشيخ مصطفى عبد الرازق لأستعين ببعض ما ورد فيها على تصوير سياسة أحمد فؤاد الأول بعد أن صار ملكا لمصر والأساليب التى كان يلجأ إليها لتشديد قبضته على الأزهر من جانب، ولإجهاض أية محاولة لتقييد حقوقه وسلطانه المطلقة فى الدستور الجديد، من جانب آخر .

فتجد فى المذكرات بتاريخ مايو ١٩٢١ فقرة تصور تدخلات القصر فى شئون الأزهر على النحو التالى، «زارنى شيخ الجامع (الأزهر) الليلة فسألته عما يجرى على الألسن من تغيير فى بعض رجال المعاهد، وظهر لى أنه يجهل حتى أن هناك شائعات فى هذا المعنى ، وأخذ يفضى إلىّ بآلامه لأن الأمور تصرف بهوى الباشا (ناظر الخاصة الملكية) على يد إمام الملك ومدير المعاهد حتى أن مذكرات المسائل التى تعرض على المجلس الأعلى للأزهر لا تحرر إلا بإشراف رجال القصر وأذنابه .

واشتكى إلى الأستاذ الأكبر أن الملك دعا إليه مدير المعاهد لمقابلة لا يدرى ما الذى دار فيها، إعلانا عن عدم رضائه عن شيخ الأزهر .. هذا وشيوخ الأزهر لا ينصرونه إلا لمزا بألسنتهم فى المجالس .

وختم الشيخ حديثه بترقب الحياة الدستورية لتضع حدا لهذا الاضطراب الاستبدادى» .

هذا ما كان من أمر الملك مع الأزهر، أما أمره مع اللجنة التى شرعت منذ صدور تصريح ٢٢ فبراير ١٩٢٢ فى إعداد أول دستور لمصر المستقلة، فنجد فقرة فى المذكرات بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٢٢، نصها «نشرت الجرائد الليلة تعديلا لبعض المواد فى قانون العقوبات المصرى كلها خاصة بعقاب من يعتدى على الملك أو يتعرض له بنقد أو لوم، وقبل هذا صدر قانون الوراثة وقانون مجلس البلاط ، ويظهر أن الملك كان مهتما بإصدار هذه القوانين توطيدا لمركزه ومركز ذريته واحتفاظا لنفسه بكل ما يستطيع الاحتفاظ به من الجلال والسلطان مخافة أن يحيف الدستور على حقوقه .

وقد حاول القصر أن يحتفظ فى الدستور الجديد بحقوق للعرش لا يحتملها النظام الدستورى، فلم يجد عونا من الوزارة، وعجز أعوانه فى لجنة الدستور عن تحقيق ما سخروا له، ويقال إن القصر يعمل بكلتا يديه على تعويق مداولات اللجنة وإحباط عملها .

ومن الغريب أن حجة دعاة جعل السيطرة على شئون الحكم للعرش هى أن الأمة ضعيفة عن فهم مصالحها وحسن النظر فيها، فى حين انصراف همة القصر إلى استصدار مثل هذه القوانين لا يؤيد حجتهم ولكنه على العكس ، يدل على أن القصر يفهم كل الفهم مصلحته ولا ينظر إلا إليها .

وأتمنى أن أكون قد نجحت بهذا القدر فى أن أوضح للقارىء طموحات الجالس على عرش مصر يومئذ وأساليبه لتحقيق هذه الطموحات، ولم تبق لى إلا إضافة من مذكرات مصطفى عبد الرازق تكمل الصورة من جانب المؤلف فى مرحلة إعداد بحثه ؛ إذ يرد بها ذكر البحث الذى كان على عبد الرازق عاكفا على إعداده منذ سنوات سابقة، فنجد فى المذكرات بتاريخ الأحد ٦ نوفمبر ١٩٢١ مانصه « قرأ لى أخى على الذى عاد مساء اليوم إلى المنصورة فصولا من البحث الذى يدونه فى الحكومة الإسلامية تمهيدا لدرس تاريخ القضاء فى الإسلام .

فوجدت موضوعات طريفة تدل على حسن التفكير وحسن الدرس وتدل على الجد العلمى من رجل له من مشاغل منصبه ما يجعل وقت فراغه خلسا .

وقد أحيا مثل أخى الصغير فى نفسى حسرة على ما يضيع من زمنى ومن قوتى هدرا .

وكم بين يدى من موضوعات أريد درسها ثم تصرفنى عنها صوارف لا تبرر لامرىء مثلى أن تكون حياته مجدبة» .

ولعله قد اتضح للقارىء الآن أنه لم يكن شىء مما يجرى مصادفة فقد استمر الملك فى محاولاته لوضع العراقيل فى وجه الحكم الدستورى طبقا للدستور الذى صدر عام ١٩٢٣، ولا كانت مصادفة أن تبدأ الترتيبات لعقد مؤتمر للخلافة بالقاهرة عام ١٩٢٥، أى بعد أقل من عام من إلغاء منصب الخليفة العثمانى فى تركيا ١٩٢٤، ولا مصادفة إذن فى أن يصدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فى العام نفسه وترتيبات عقد هذا المؤتمر قد بلغت مراحلها النهائية .

وإذا كانت الأمور تقاس بنتائجها وتقاس فى الوقت نفسه بمعايير المجال الذى جرت داخله، فإن كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، يعد «ضربة حاذق» من حيث التوقيت والمضمون والأثر السياسى، فقد أدى صدوره والتداعيات السياسية التى ترتبت عليه إلى تبديد حلم الملك فؤاد الذى أمضى سنوات طويلة يخطط لتحقيقه ، ويعد الواقع السياسى الداخلى والخارجى لتقبله، وإلى حرق الورقة الرئيسية التى كان يعول عليها فى التخلص من قيود الحياة الدستورية بالاحتماء بجلال منصب الخليفة وقدسيته .

فقد نشبت أزمة وزارية أدت إلى سقوط الوزارة القائمة ونقض

الائتلاف الذى كان قائما داخلها بين حزب الاتحاد (حزب القصر) وبين حزب الأحرار الدستوريين، ولسنا بحاجة هنا للخوض فى مزيد من تفصيلات الأزمة السياسية التى أدى إليها صدور الكتاب، فما كتب عنها تضيق به مجلدات لمن شاء أن يرجع إليها، ولكنه يبقى من المفيد الإشارة إلى أن بعض التداعيات المعاكسة لمخططات الملك وحزبه، سببها الاندفاع والنزعة الاستبدادية التى صاحبت ردود فعل السلطة، وأولها الطريقة التى جرت بها محاكمة المؤلف الأزهرى الشاب الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره فى ذلك الوقت، والطريقة التى صدر بها الحكم والأسباب التى بنى عليها، ثم الحملة الصاخبة ضد المؤلف والتى كانت يد السلطة فى التدبير والتنفيذ من ورائها واضحة لكل ذى عينين .

يكتب على عبدالرازق فى مذكراته وصفا مختصرا لمحاكمته بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٢٥. «ذهبت يوم ١٢ أغسطس أمام هيئة كبار العلماء فتلا على شيخ الجامع بيان التهم السبع وبعد مناقشة وجيزة فى أن هيئة كبار العلماء تملك محاكمتى أم تلوت عليهم مذكرة بالرد على التهم ثم انصرفت أنا ، وأصدروا هم قرارهم يومئذ بإخراجى من هيئة كبار العلماء .

كان لهذا الحكم دوى شديد فى مصر وفى الخارج وكان له تأثير

كبير فى تحول الرأى العام المتنور إلى العطف علىّ وتشجيعى ، كما أنه جعل اسمى معروفا تتداوله الجرائد فى جميع جوانب العالم ، وتواردت على رسائل العطف من شتى البلاد وكثر الطلب على الكتاب حتى نفدت نسخه فى الأسابيع الأولى فأعيد طبعه ثانية فى أغسطس، طبعت ألفى نسخة فنفدت فى أيام ، ثم طبع ثالث مرة بعد ذلك فى أوائل سبتمبر ثلاثة آلاف نسخة نفدت هى الأخرى .

بل ومما يحسب لهذا الكتاب وتوقيت صدوره أنه نبه الحزبين السياسيين الرئيسيين على الساحة السياسية المصرية يومئذ من غفلتهما النابعة من الاستغراق فى جو المناورات السياسية والحزبية الضيقة فى مناخ الديمقراطية الوليدة التى جاء بها الدستور الجديد.

فمن جانب الأحرار الدستوريين أدت الأزمة إلى تنبههم إلى حقيقة الدور الذى كان الملك قد استدرجهم إليه ليؤدوه بائتلافهم مع حزب الاتحاد (حزب القصر) فى الوزارة القائمة التى كانت إجراءات عقد مؤتمر الخلافة تجرى فى عهدها .

ويكتب على عبد الرازق عن دور جريدة السياسة، لسان حال الأحرار الدستوريين . فى مناصرته بعد أن استقال الوزراء الدستوريون من الوزارة وانفض الائتلاف، وقامت جريدة السياسة تناضل معنا من

غير حساب ولا وجل ، وارتفعت من هنا وهناك أصوات بمناصرتى وكان الجدل حادا والصدام شديدا .

وظنوا أنهم قد وجدوا فرصة لن يجدوا خيرا منها للقضاء على أولا وعلى جريدة السياسة التى أبلت فى الدفاع عنى ثانيا، وعلى حزب الأحرار الدستوريين الذى يضايقهم فى الحكومة ثالثا .

وأما حزب الوفد، أو السعديون كما كان يطلق عليهم أيضا، فقد انطلقوا أول الأمر فى انتقاد الكتاب والمؤلف باعتبار أن ذلك يحرج الأحرار الدستوريين خصومهم السياسيين المشاركين فى الحكومة القائمة، ثم لم تلبث استقالة الأحرار الدستوريين من الوزارة، وارتفاع الأصوات المدافعة عن المؤلف وعن حرية الفكر والتعبير وعن الدستور، أن فتحت عيون الوفديين على حقيقة ما يجرى وخطورته، فبدلوا من مواقفهم ، وظهر ذلك واضحا بداية من عام ١٩٢٦وانطلقت صحافتهم تدعو إلى توحيد المواقف فى وجه نزعات الملك الاستبدادية، ولعل فيما كتبه أحمد حافظ عوض فى جريدة «كوكب الشرق» الوفدية عام ١٩٢٦ أبلغ تعبير عن هذه الروح الجديدة ، إذ يقول «كنا نستطيع أن نستغل ذلك الحادث كسعديين مخالفين لهم (الأحرار الدستوريين) عدا ما فى هذا الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس وتنفير الأزهر وعلمائه من الأحرار الدستوريين» .

كنا نستطيع أن نستغل ذلك حزبيا، ولكن ضمائرنا أبت هذا الاستغلال ووطنيتنا تسامت على ذلك ومن أجل هذا رجونا الأدباء والمفكرين أن يتخذوا من هذا الحادث موعظة يتعلمون منها أن الأحرار من كل الأحزاب فى حاجة إلى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور وما كفل من الحريات .

وبالرغم من هذا الإطار السياسى الواضح الذى كانت الأحداث تجرى داخله، فلسنا نريد لهذا الإطار السياسى أن يطغى على الصورة بالكامل ولا لعامل انتسابه إلى اسرة تنتمى إلى حزب الأحرار الدستوريين، الذين كانوا يخاصمون الملك خصاما شديدا رغم كل الظواهر التى قد توحى بالعكس، لا نريد لشئ من ذلك أن يحجب جانبا آخر لا يمكن إغفاله وإلا اختلت الصورة ، ألا وهو انتماء على عبد الرازق، إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

فعلى عبد الرازق لم يؤلف كتابه وينشره فى ذلك الوقت بوصفه رجل سياسة أو منتميا إلى حزب سياسى، وإن كان تكوينه وظروف نشأته جعلته لا يخلو بالضرورة من حاسة سياسية مرهفة، وإنما كأزهرى من المنتمين بالروح والفعل إلى مدرسة الشيخ محمد عبده والمتأثرين بمناهجه الإصلاحية .

ولعلى عبد الرازق تعريف بمدرسة الأستاذ الإمام أورده فى مقدمته

لكتاب . «من آثار مصطفى عبد الرازق» يقول فيه «فدعوة الأستاذ الإمام كما ترى دعوة عامة ومدرسته كما ترى ليست مدرسة يحدها مكان ولا زمان ولا أشخاص، ولكنها مدرسة تتلاقى فيها الأرواح جنودا مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» .

والنجاح في هذه المدرسة لا يكون بكثرة الدرس ولا طول التلقى عن الأستاذ الإمام ولا بالقرب منه، وإنما يكون بالتعارف بروحه والائتلاف معه، وعلى قدر ذلك يكون التلقى عنه والاستمداد منه .

ولا ينطبق هذا القول على أحد قدر انطباقه على المؤلف ذاته، إذ إنه كان بعد مازال فى مقتبل العمر وأواسط سنوات دراسته عندما توفى الأستاذ الإمام فلم يتح له الاتصال به عن قرب والتلقى عنه مباشرة لفترة طويلة كما كان الحال مع شقيقه الأكبر مصطفى، فصلته بأستاذه هى تلك التى وصفها بأنها بالتعارف بروحه والائتلاف معه .

وأبناء الاستاذ الإمام محمد عبده اشربوا فى سنوات تكوينهم قول معلمهم «لقد علا صوت الإسلام وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم، ولذلك أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع لله وحده .

ثم اشربوا بعد ذلك، فى جانب الفكر السياسى لأستاذهم الإمام،

قوله وهو يعدد النقاط الثلاث التى تشكل دعامات منهجه فى الإصلاح «وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا فى عمى عنه وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم من الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه .

وذلك الأمر هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

نعم كنت فيمن دعا الأمة إلى معرفة حقها على حاكمها .. جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد والناس عبيد له وأى عبيد» .

وليس من العسير على القارىء أن يستشف تأثير هذه الروح على المؤلف منذ السطور الأولى فى المقدمة ، والتى يعلن فيها المؤلف «أشهد أن لا إله إلا الله، ولا أعبد إلا إياه، ولا أخشى أحدا سواه له القوة والعزة وما سواه ضعيف ذليل»! .

غير أنه قد لا يكون من الإنصاف نسبة التأثير الأكبر فى مراحل التكوين إلى تأثير تعاليم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ومناهجه الإصلاحية وحدها، فلا شك أن على عبد الرازق وقت أن تعرض لهذا التأثير كان وعاء صالحا من حيث الفطرة والنشأة والبيئة العائلية التى نشأ فيها وترعرع .

ليس صالحا للتأثر فقط بشخصية الأستاذ الإمام وتعاليمه وإنما التفاعل معها وتطويرها بما يناسب تطورات وتحديات الواقع المصرى فى زمن غير زمن الأستاذ الإمام وواقعه وتحدياته، «إذ كان المتلقى أحسن استعدادا ؛ وكان روحه أمكن تعارفا بروح أستاذه وائتلافا»، وهى الخواص التى عبر عنها على عبد الرازق ذاته كشروط للتميز فى هذه المدرسة .

فالمؤلف قد نشأ ولا شك فى بيئة عائلية وسياسية وثقافية واجتماعية مميزة تركت آثارها واضحة فى فكره وشخصيته ونزعاته السياسة إلى آخر أيام حياته، بل وتركت آثارها فى أشقائه الآخرين بدرجات متفاوتة وفى مناحى متفرقة فلا تجد واحدا منهم إلا وله أثر وذكر فى جانب من جوانب الحياة العامة فى مصر فى القرن العشرين .

وقد لمست بنفسى تأصل مقومات التميز فى هذه الشخصية دون تكلف أو اصطناع بطول معاشرتى لصاحبها طيب الله ثراه، واحتفظت إلى اليوم بخطاب بعثه إلى وأنا غائب بحكم أقدار المهنة فى اليابان ، كتبه بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٩٦٣، ربما يلقى الضوء على جوانب كثيرة من منطلقاته الدينية والفكرية والسياسية فيقول «وما أظن أن فى هذه الحياة الدنيا عروة أوثق ولا أبقى على الدهر من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما فى القرآن الكريم بنص صريح، ثم من التشبث

بموروث الدين والأدب والفضيلة الذى تلقته البشرية منذ أقدم تاريخ عرفناه لها جيلا عن جيل وأمة عن أمة وآباء عن أجداد» .

ثم يمضى فى خطابه ليفصل القول فيكتب، «ذلك هو منهجنا السياسى منذ أيام عباس فؤاد وفاروق وهو منهجنا إلى اليوم لا نتأثر باعتبارات شخصية ولا نبنى عليها منهجنا السياسى وإنما نريد سلامة الحكم من شرور الاستبداد ومفاسد الطغيان .

ولقد تعرضنا لغضب عباس (الخديو عباس حلمى الثانى) يوم قمنا ندافع عن الأزهر الذى أراد أن يعبث بمصالحه ويوجهه توجيها سياسيا لا خير فيه، ويوم سلط علينا وزراءه ومستخدميه يضربون الأزهريين بالسياط ويوعدون ويتهددون .

وكان فؤاد أشد بأسا وأشد تنكيلا من عباس وقد سلط علينا وزاراته وكثيرا من أشياعه فما منعنا ذلك من أن نرفع صوتنا بمعارضة أساليبه فى الحكم . والغريب أن هذا الموقف السياسى الذى سلكناه «فى عصرنا الحاضر هو بعينه الموقف السياسى الذى سلكه آباؤنا وأجدادنا من قبل فى أيام إسماعيل ومن قبله أيام محمد على .

فالقضية التى يدور حولها النزاع اليوم هى بعينها القضية التى واجهها آباؤنا وأجدادنا، قضية الحاكم المعوج والحكومة المستقيمة، وإن شئت فقل إن تلك هى قضية الدنيا من أقدم أيامها، أى منذ قام فيها حاكم ومحكوم وحكومة» .

فإذا حق لى أن أستخدم فى هذا المقام الفكرى والسياسى الجاد نفحة من نفحات المخيلة، لأجملت الصورة فيما يشبه مباراة بين لاعبين أساسيين، هما الملك والشيخ، وكلاهما تجمع فى شخصه فى لحظة حاسمة من تاريخ الأمة المصرية كل الروافد الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية بل والعرقية التى كانت تصب فى التيارين الرئيسين المتعارضين على الساحة الداخلية المصرية يومئذ، وكان مصير الغلبة لأى من هذين التيارين بات معلقا فى تلك اللحظة من التاريخ بمهارة كل منهما وقدرته على الحركة فى التوقيت السليم والاتجاه السليم، وأما من الذى يعد مهزوما ومن يعد منتصرا منهما فمتروك لتقدير القارىء الذى قد يخضع لتأثير الزاوية التى ينظر منها إلى الأمور والمدى الزمنى الذى يحد نظرته إلى تطور الأحداث .

ولكن الذى لا شك فيه ولا يمكن أن تتجاهله التقريرات مهما اختلفت، أن الكتاب ترك آثارا واضحة إلى اليوم فى تاريخ مصر المعاصرة فى جوانبه السياسية والفكرية، لا يمكن أن يقارن به تأثير أى كتاب آخر معاصر له مهما كانت قيمته فى الفرع العلمى أو المجال الثقافى المحدد الذى تناوله .

وإذا أذنت لمخيلتى مرة أخرى أن تجرفنى بعيدا عن السياق الأصلى إلى قضية فرعية أثارها خصوم على عبد الرازق ، كنوع من التجريح

الشخصى، ألا وهى أنه لا يعرف له نتاج فكرى آخر على مستوى كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وربما كان فى هذا الادعاء ما يؤيد ما ذهبنا إليه آنفا وتحفظنا مقدما بأنه من نتاج المخيلة فى تصوير الموقف، وهو أنه قد كان من قدر المؤلف أن تقع مسئولية التحدث باسم دعاة الفكر الإصلاحى المستنير، فى الدين والسياسة، وفى الأزهر وخارجه، وفى لحظة حاسمة من عمر الأمة المصرية على عاتقه وهو مازال بعد شابا فى مقتبل العمر، فلم يكن أمامه مخرج مثلما كان أمام أقرانه من مفكرى العصر ومصلحيه، يسمح له بأن يودع الحقيقة على شكل جرعات محسوبة مقدما فى أعمال فكرية وكتابات متفرقة على مدى زمنى طويل، فلم يكن أمامه مفر من أن يضع ما يعتقد، ويعتقد معه أبناء جيله من المصلحين المجددين، أنه الحق والحقيقة، كاملا وفى جرعة واحدة، ثم كان عليه تحمل التداعيات التى أثارتها الصدمة الفكرية والسياسية والعواصف والأنواء التى أثارتها وكانت أمواجها مازالت تتجدد إلى أن رحل عن عالمنا .

وصدق الأستاذ الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة والمفكر المعروف رحمه الله، إذ عرف كتاب علي عبد الرازق وما أثاره بأنه «ثورة فكرية» ... وكفى .

وإذا كانت الأمم لا تحتمل إلا ثورة فكرية واحدة كل مائة عام من عمرها، فهل يحتمل بشر إلا عبء ثورة فكرية واحدة على مدى العمر ؟!

من أجل هذا ومن أجل ألا أحـجب الملامح الجـوهرية والخطوط الرئيسية للصورة، ثم أتعرض فى هذه المقدمة إلى الوقائع والأصوات والأشخاص الثانوية المصاحبة للحدث الرئيسى، ولا الاتهامات التى وجهت إلى المؤلف بالإلحاد والخروج على مقتضيات العقيدة والشريعة، ولا إلى الجدل حول موضوعات الكتاب وما جاء به من مباحث علمية تخدم القضية الرئيسية، فقد كفانى المؤلف ذاته مشقة الخوض فى كل ذلك إذ كتب فى مقدمة كتابه «وإنى لأرجو إن أراد لى الله، مواصلة ذلك البحث، أن أتدارك ما أعرف فى هذه الورقات من نقص، وإلا فقد تركت بها بين أيدى الباحثين أثرا عسى أن يجدوا فيه شيئا من جدة الرأى فى صراحة لا تشوبها مماراة، وعسى أن يجدوا فيه أيضا أساسا لمن يريد البناء واعلاما واضحة ربما اهتدى بها السارى إلى مواطن الحق» .

بل إنه يضيف «فلا غرو أنه جاء عملا دون ما أردت له من كمال وما ينبغى له من إتقان، بيد أنه على كل حال أقصى ما وصل إليه بحثى وغاية ما وسعت نفسى» .

وشتان بين هذا الاعتراف الراقى بنواحى القصور فى البحث التى لا يخلو منها جهد بشرى والترحيب الضمنى بالنقد وبالحوار الرشيد حول بحث، انعقدت نية صاحبه، والأعمال بالنيات، على أن يخدم به

الإسلام والمسلمين، بقدر ما تهيأ له من الجهد وسلامة النظر، وبين التكفير والتفسيق والرمى بتهم الإلحاد .

وأرجو أن أكون قد بينت للقارىء، فيما أسلفت، وبما فيه الكفاية كيف كانت الحملة مدبرة والنية منعقدة من البداية على رمى المؤلف بالإلحاد حتى يتسنى اتخاذ الإجراءات السياسية والدعائية التى لجأ إليها أصحاب السلطان والنفوذ ، لإسكات صوت هذا العالم الأزهرى الشاب وإرهاب من تسول له نفسه الوقوف إلى جانبه .

وجوهر القضية فى تقديرى إذا عريناها من كل ما هو ثانوى ومن كل التراكمات التى تجمعت حولها بفعل أزمان أخرى وأغراض أخرى وعقليات أخرى، يبقى صحيحا اليوم مثلما كان صحيحا بالأمس، واضحا كالشمس فى كلمات تلك الخلاصة التى ختم بها على عبد الرازق كتابه بأسلوبه الواضح المباشر والذى يتميز بصراحة لا تشوبها مماراة، يتمشى فى الوقت نفسه مع فهمه لمنهج أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده والذى يصفه بأنه، «وهو فى مذاهبه الإصلاحية لا يفعل شيئا أكثر من أن يتجه وجهة الإصلاح كما يجب أن يكون الإصلاح، فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا ثم بالقول الصريح يصدع به أنى كان، فى المحافل العامة وفى مجالسه الخاصة، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث وفيما ينشر فى المجلات والجرائد، وفى رسائله العامة والخاصة» .

فإنه حتى لو أخلى القارىء ذهنه، بعد أن يفرغ اليوم من مطالعة صفحات هذا الكتاب، من كل الظروف التاريخية والسياسية التى أحاطت به وقت صدوره، ومن كل ما نشر حوله نقدا أو تأييدا، ومضى يتطلع بإمعان إلى واقع البلدان والشعوب الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما آلت إليه أحوالها والتحديات الجسمام التى تواجهها من داخلها وخارجها، فى عالم يخطو خطواته الأولى عبر بوابة القرن الحادى والعشرين، وهو يعتلى قمة الموجة الثالثة من موجات تطور الحضارة البشرية، لوجد صيحة هذا المؤلف الأزهرى التى أطلقها من خمسة وسبعين عاما نذيرا وتنويرا لأبناء أمته، مازالت أصداؤها تتردد سليمة واضحة كأنما أطلقها بالأمس القريب .

لا شىء فى الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى فى علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا له واستكانوا إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية وما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه،،،

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد ان لا إله إلا الله، ولا أعبد إلا اياه، ولا أخشى أحدا سواه . له القوة والعزة، وما سواه ضعيف ذليل ، وله الحمد فى الأولى والآخرة، وهو حسبى ونعم الوكيل.

وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. صلى الله وملائكته عليه وسلموا تسليما كثيرا.

وليت القضاء بمحاكم مصر الشرعية، منذ سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة وألف هجرية (١٩١٥م) فحفزنى ذلك إلى البحث عن تاريخ القضاء الشرعى. والقضاء بجميع أنواعه فرع من فروع الحكومة، وتاريخه يتصل بتاريخها اتصالا كبيرا، وكذلك القضاء الشرعى ركن من أركان الحكومة الإسلامية ، وشعبة من شعبها ، فلابد حينئذ لمن يدرس تاريخ ذلك القضاء أن يبدأ بدراسة ركنه الأول ، أعنى الحكومة فى الإسلام.

وأساس كل حكم فى الإسلام هو الخلافة والإمامة العظمى - على ما يقولون - فكان لابد من بحثها .

شرعت فى بحث ذلك كله منذ بضع سنين ، ولا أزال بعد عند

مراحل البحث الأولى ، ولم أظفر بعد الجهد إلا بهذه الورقات ، أقدمها على استحياء، إلى من يعنيهم ذلك الموضوع .

جعلتها تمهيدا للبحث فى تاريخ القضاء، وضمنتها جملة ما اهتديت إليه فى شأن الخلافة ونظرية الحكم فى الإسلام. وما أدعى أننى قد أحطت فيها بجوانب ذلك البحث ، ولا أننى استطعت أن أتحامى شيئا من الإجمال فى كثير من المواضع . بل قد أكون اكتفيت أحيانا بإشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتها ، وبتلويحات قد تفوتهم دلالتها ، وبكنايات توشك أن تصير عليهم ألغازا، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة ، وبحقيقة ربما حسبوها مجازا .

وإنى لأرجو - إن أراد الله لى مواصلة ذلك البحث - أن أتدارك ما أعرف فى هذه الورقات من نقص. وإلا فقد تركت بها بين أيدى الباحثين أثرا عسى أن يجدوا فيه شيئا من جدة الرأى ، فى صراحة لا تشوبها مماراة . وعسى أن يجدوا فيه أيضا أساسا صالحا لمن يريد البناء، وأعلاما واضحة ربما اهتدى بها السارى إلى مواطن الحق.

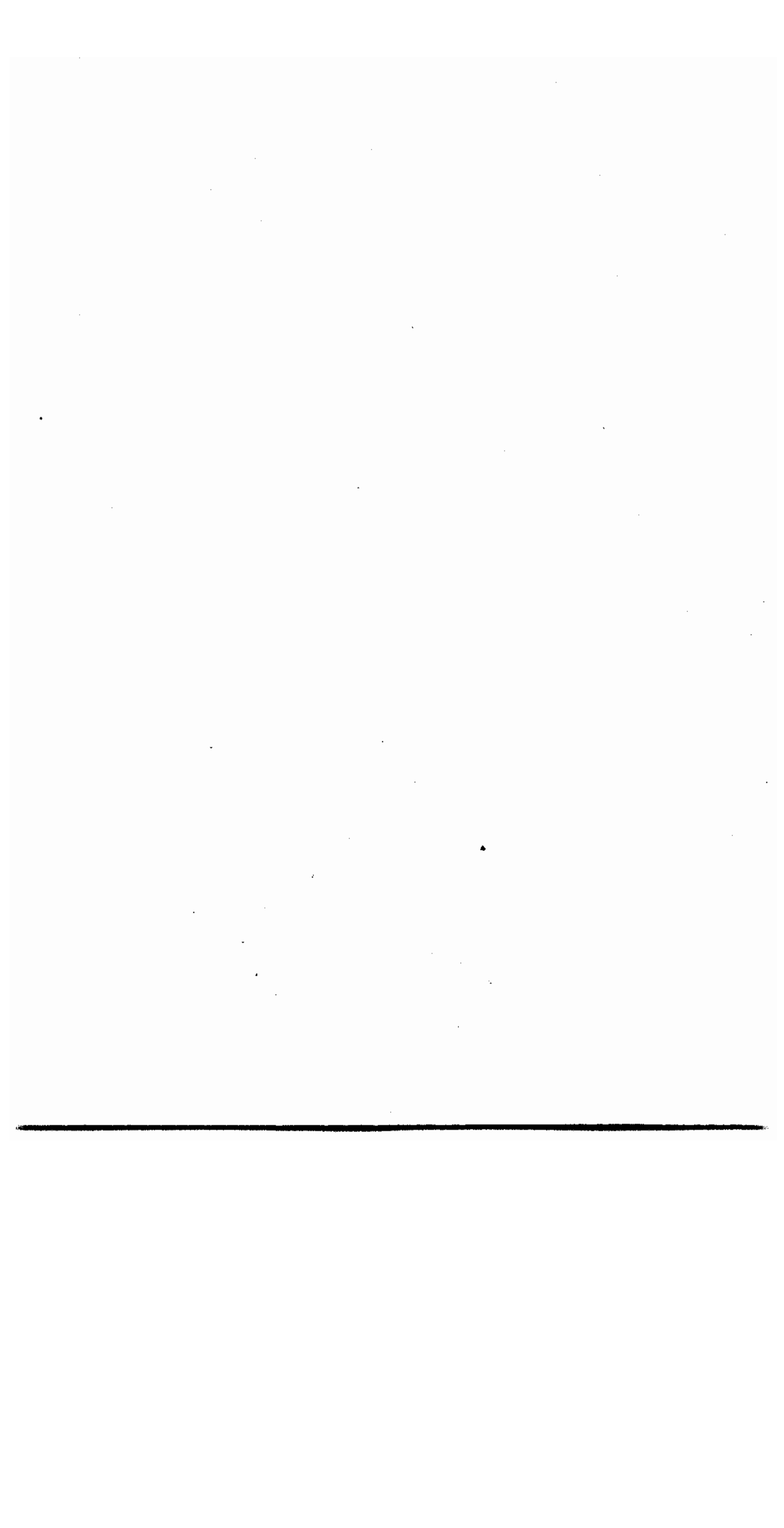
أما بعد فإن تلك الورقات هى ثمرة عمل بذلت له أقصى ما أملك من جهد ، وأنفقت فيه سنين كثيرة العدد. كانت سنين متواصلة الشدائد ، متعاقبة الشواغل، مشوبة بأنواع الهم، مترعة كأسها بالألم . أستطيع العمل فيها يوما ثم تصرفنى الحوادث أياما، وأعود إليه شهرا ثم أنقطع

أعواما، فلا غرو أن جاء عملا دون ما أردت له من كمال، وما ينبغي له من إتقان ، بيد أنه على كل حال هو أقصى ما وصل إليه بحثي، وغاية ما وسعت نفسي «لا يكلف الله نفسا الا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

على عبد الرازق

المنصورة في يوم الأربعاء الموافق

٧ رمضان سنة ١٤٤٣هـ.- أول ابريل سنة ١٩٢٥ م .



الكتاب الأول

الخلافة والإسلام

الباب الأول

الخلافة وطبيعتها

الخلافة فى اللغة - فى الاصطلاح - معنى قولهم بنيابة الخليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم - سبب التسمية بالخليفة - حقوق الخليفة فى رأيهم - الخليفة مقيد عندهم بالشرع - الخلافة والملك - من أين يستمد الخليفة ولايته - استمداده الولاية من الله - استمداده الولاية من الأمة - ظهور مقل ذلك الخلاف بين علماء الغرب.

* * *

(١) الخلافة لغة مصدر تخلف فلان فلانا إذا تأخر عنه، وإذا جاء خلف آخر، وإذا قام مقامه. ويقال خلف فلان فلانا إذا قام بالأمر عنه، إما معه وإما بعده. قال تعالى (١) «ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون» والخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه الخ والخلائف جمع خليفة، وخلفاء جمع خليف (٢) والخليفة السلطان الأعظم (٣).

(٢) والخلافة فى لسان المسلمين، وترادفها الإمامة، هى «رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم» (٤).

ويقرب من ذلك قول البيضاوى (٥) «الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول عليه السلام فى إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة، على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة» (٦).

وتوضيح ذلك ما قال ابن خلدون «والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى، فى مصالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به» (٧).

(٣) وبيان ذلك أن الخليفة عندهم يقوم فى منصبه مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كان صلى الله عليه وسلم فى حياته يقوم على أمر ذلك الدين، الذى تلقاه من جانب القدس الأعلى، ويتولى تنفيذه والدفاع عنه، كما تولى إبلاغه عن الله تعالى، ودعوة الناس إليه.

وعندهم أن الله جل شأنه كما اختار محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لدعوة الحق، وإبلاغ شريعته المقدسة إلى الخلق ، قد اختاره أيضا لحفظ ذلك الدين وسياسة الدنيا به (٨).

فلما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى قام الخلفاء من بعده مقامه فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به.

(٤) وسمى القائم بذلك «خليفة وإماما، فأما تسميته إماما

فتشبيها بإمام الصلاة، فى اتباعه والاقتداء به، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله، واختلف فى تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم.. ومنع الجمهور منه.. وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به، وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩)»

(٥) فالخليفة عندهم ينزل من أمته بمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة، والطاعة التامة، والسلطان الشامل، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده، وينفذ شرائعه، وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا. وعليهم أن يحبوه بالكرامة كلها لأنه نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند المسلمين مقام أشرف من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن سما إلى مقامه فقد بلغ الغاية التى لا مجال فوقها لمخلوق من البشر. عليهم أن يحترموه لإضافته إلى رسول الله، ولأنه القائم على دين الله، والمهيمن عليه، والأمين على حفظه. والدين عند المسلمين هو أعز ما يعرفون فى هذا الكون، فمن ولى أمره فقد ولى أعز شئ فى الحياة وأشرفه.

عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا «ظاهرا وباطنا» (١٠) لأن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله(١١).

فنصح الإمام ولزوم طاعته فرض واجب، وأمر لازم ، ولا يتم إيمان إلا به، ولا يثبت إسلام إلا عليه (١٢).

وجملة القول أن السلطان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أيضا حمى (١٣) الله فى بلاده، وظله الممدود على عباده، ومن كان ظل الله فى أرضه وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فولايته عامة ومطلقة، كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم، ولا غرو حينئذ أن يكون له حق التصرف «فى رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم»(١٤).

وأن يكون له وحده الأمر والنهى، وبيده وحده زمام الأمة، وتدبير ما جل من شئونها وما صغر . كل ولاية دونه فهى مستمدة منه، وكل وظيفة تحته فهى مندرجة فى سلطانه، وكل خطة دينية أو دنيوية فهى متفرعة عن منصبه، «لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا» (١٥)، «فكأنها الإمام الكبير، والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها، وداخلة فيها، لعموم نظر الخلافة، وتصرفها فى سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم (١٦)»

وليس للخليفة شريك فى ولايته، ولا لغيره ولاية على المسلمين، إلا ولاية مستمدة من مقام الخلافة ، وبطريق الوكالة عن الخليفة، فعمال الدولة الإسلامية وكل من يلى شيئا من أمر المسلمين فى دينهم أو دنياهم من وزير أو قاض أو وال أو محتسب أو غيرهم ، كل أولئك وكلاء

للسلطان ونواب عنه. وهو وحده صاحب الرأى فى اختيارهم وعزلهم، وفى إفاضة الولاية عليهم، وإعطائهم من السلطة بالقدر الذى يرى، وفى الحد الذى يختار.

(٦) قد يظهر من تعريفهم للخلافة ومن مباحثهم فيها أنهم يعتبرون الخليفة مقيدا فى سلطانه بحدود الشرع لا يتخطاها، وأنه مطالب حتما بأن يسلك بالمسلمين سبيلا واحدة معينة من بين شتى السبل: هى سبيل واضحة من غير لبس، ومستقيمة من غير عوج. قد كشف الشرع الشريف عن مبادئها وغاياتها، وأقام فيها أماراتها، ومهد مدارجها، وأنار فجاجها، ووضع فيها منازل للسالكين، وحدد الخطى للسائرين، فما كان لأحد أن يضل فيها ولا يشقى، وما كان الخليفة أن يفرط فيها ولا أن يطغى. هى سبيل الدين الإسلامى التى أقام محمد صلى الله عليه وسلم يوضحها للناس حقبة من الدهر طويلة. هى السبيل التى حددها كتاب الله الكريم وسنة محمد وإجماع المسلمين.

نعم هم يعتبرون الخليفة مقيدا بقيود الشرع، ويرون ذلك كافيا فى ضبطه يوما إن أراد أن يجمح، وفى تقويم ميله إذا خيف أن يجنح.

وقد ذهب قوم منهم إلى أن الخليفة إذا جار أو فجر انعزل عن الخلافة.

(٧) وقد فرقوا من أجل ذلك بين الخلافة والملك، بأن «الملك الطبيعى

هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى الخ» (١٧) ولذلك يقرر ابن خلدون أن الخلافة الخالصة كانت فى الصدر الأول إلى آخر عهد على .

«ثم صار الأمر إلى الملك، وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك، والصدر الأول من خلفاء بنى العباس، إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت فى أغراضها، من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ، وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم، وتلاشى أحوالهم ، وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق، يدينون بطاعة الخليفة تبركا، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شئ الخ»(١٨)

(٨) قد كان واجبا عليهم، إذ أفاضوا على الخليفة كل تلك القوة ، ورفعوه إلى ذلك المقام، وخصوه بكل هذا السلطان، أن يذكروا لنا مصدر تلك القوة التي زعموها للخليفة، أنى جاءته؟ ومن الذى حباه بها، وأفاضها عليه.

لكنهم أهملوا ذلك البحث ، شأنهم فى أمثاله من مباحث السياسة الاخرى، التى قد يكون فيها شبه تعرض لمقام الخلافة ومحاولة البحث فيه والمناقشة.

على أن الذى يستقرئ عبارات القوم المتصلة بهذا الموضوع يستطيع أن يأخذ منها بطريق الاستنتاج أن للمسلمين فى ذلك مذهبين.

(٩) المذهب الأول أن الخليفة يستمد سلطانه من سلطان الله تعالى وقوته من قوته.

ذلك رأى تجد روحه سارية بيت عامة العلماء وعامة المسلمين أيضا. وكل كلماتهم عن الخلافة ومباحثهم فيها تنحو ذلك النحو، وتشير إلى هذه العقيدة. وقد رأيت فيما نقلنا لك آنفا(١٩) أنهم جعلوا الخليفة ظل الله تعالى ، وأن أباجعفر المنصور زعم أنه إنما هو سلطان الله فى أرضه .

وكذلك شاع هذا الرأى وتحدث به العلماء والشعراء منذ القرون الأولى، فتراهم يذهبون دائما إلى أن الله جل شأنه هو الذى يختار الخليفة ويسوق إليه الخلافة ، على نحو ما ترى فى قوله:

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

وقول الآخر:

ولقد أراد الله إذ ولاّكها من أمة إصلاحها ورشادها

وقال الفرزدق (٢٠)

هشام(٢١) خيار الله للناس والذى به ينجلى عن كل أرض ظلامها

وأنت لهذا الناس بعد نبيهم سماء يرجى للمحول غمامها

ولقد كان شيوع هذا الرأى وجريانه على الألسنة مما سهل على الشعراء أن يصلوا فى مبالغتهم إلى وضع الخلفاء فى مواضع العزة القدسية أو قريبا منها حتى قال قائلهم:

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار

وقال طريح (٢٢) يمدح الوليد بن يزيد (٢٣)

أنت (٢٤) ابن مسلنطح البطاح ولم تطرق عليك الحنى والولج

طوبى لفرعيك من هنا وهنا طوبى لأعراقك التى تشج

لو قلت للسيل دع طريقك والمو ج عليه كالهضب يعتلج

لساخ وارتدا أو لكان له فى سائر الأرض عنك منعرج

وإذا أنت رجعت إلى كثير مما ألف العلماء خصوصا بعد القرن الخامس الهجرى. وجدتهم إذا ذكروا فى أول كتبهم أحد الملوك أو السلاطين رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الآلهية.

ودونك مثالا لذلك ما جاء فى خطبة نجم الدين القزوينى (٢٥) فى أول «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية» حيث قال «فأشار إلى من سعد بلطف الحق، وامتاز بتأييده من بين كافة الخلق، ومال إلى جنابه الداني والقاصى، وأفلح بمتابعته المطيع والعاصى ، الخ»

وقال شارح تلك الرسالة قطب الدين الرازى (٢٦) فى خطبة شرحه «وخدمت به عالى حضرة من خصه الله تعالى بالنفس القدسية، والرياسة الانسية.. اللائح من غرته الغراء لوائح السعادة الابدية، الفائح من همته العلياء روائح العناية السرمدية.... شرف الحق والدولة والدين، رشيد الاسلام ومرشد المسلمين الخ»

ويقول عبد الحكيم السيالكوتى (٢٧) فى حاشيته على الشرح المذكور «جعلته عراضة لحضرة من خصه الله تعالى بالسلطة الابدية، وأيده بالدولة السرمدية.. مروج الملة الحنيفية البيضاء، مؤسس قواعد الشريعة الغراء، ظل الله فى الارضين، غياث الاسلام والمسلمين، عامر بلاد الله ، خليفة رسول الله، المؤيد بالتأييد والنصر الربانى الخ»(٢٨)

وجملة القول ان استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار على الالسنة، فاش بين المسلمين.

(١٠) وهنالك مذهب ثان قد نزع اليه بعض العلماء وتحدثوا به، ذلك هو ان الخليفة انما يستمد سلطانه من الامة، فهى مصدر قوته، وهى التى تختاره لهذا المقام.

ولعل الحطيئة (٢٩) قد نزع ذلك المنزع حين يقول لعمر بن الخطاب:

أنت الامام الذى من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها لكن لانفسهم كانت بك الاثر

وقد وجدنا ذلك المذهب صريحا فى كلام العلامة الكاسانى (٣٠) فى كتابه البدائع . قال: (٣١) «وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء.. لا يختلفان الا فى شئ واحد، وهو أن الموكل اذا مات أو خلع ينعزل الوكيل، والخليفة اذا مات أو خلع لا تنعزل قضاته وولاته .

ووجه الفرق ان الوكيل يعمل بولاية الموكل وفى خالص حقه أيضا، وقد بطلت أهلية الولاية فينعزل الوكيل. والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى حقه، بل بولاية المسلمين وفى حقوقهم، وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود، والوكيل فى النكاح. واذا كان رسولا كان فعله بمنزلة فعل عامة المسلمين، وولايتهم بعد موت الخليفة باقية، فيبقى القاضى على ولايته. وهذا بخلاف العزل، فان الخليفة اذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ولا ينعزل بموته. لانه لا ينعزل بعزل الخليفة ايضا حقيقة بل بعزل العامة لما ذكرنا ان توليته بتولية العامة. والعامة ولوه الاستبدال دلالة ، لتعلق مصلحتهم

بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضا . فهو الفرق بين العزل والموت».

ومن أوفى ما وجدنا فى بيان هذا المذهب والانتصار له رسالة الخلافة وسلطة الامة التى نشرتها حكومة المجلس الكبير الوطنى بأنقرة ونقلها من التركية إلى العربية عبد الغنى سنى بك وطبعها بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٣٤٢ هـ- ١٩٢٤م.

(١١) مثل هذا الخلاف بين المسلمين فى مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الاوروبيين وكان له أثر فعلى كبير فى تطور التاريخ الاوروبى. ويكاد المذهب الاول يكون موافقا لما اشتهر به الفيلسوف «هبز (٣٢)» من أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوى. وأما المذهب الثانى فهو يشبه أن يكون نفس المذهب الذى اشتهر به الفيلسوف «لك»(٣٣).

نرجو أن يكون ما سبق كافيا لك فى بيان معنى الخلافة عند علماء المسلمين ومعنى قولهم: (٣٤) «أنها رياسة عامة فى الدين والدنيا خلافة عن النبى صلى الله عليه وسلم»

الباب الثانى

حكم الخلافة

الموجبون لنصب الخليفة - المخالفون في ذلك - أدلة القائلين بالوجوب - القرآن والخلافة - كشف الشبهة عن بعض آيات - السنة والخلافة - كشف شبهة من يحسب في السنة دليلا.

---

(١) نصب الخليفة عندهم واجب اذا تركه المسلمون اثموا كلهم أجمعون. يختلفون بينهم فى ان ذلك الوجوب عقلى أو شرعى ، وذلك خلاف لا شأن لنا به هنا، ولكنهم لا يختلفون فى أنه واجب على كل حال، حتى زعم ابن خلدون ان ذلك مما انعقد عليه الاجماع . قال (٣٥).

(٢) «وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم (٣٦) من المعتزلة وبعض الخوارج (٣٧) وغيرهم . والواجب عند هؤلاء انما هو إمضاء احكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ احكام الله تعالى لم يحتج إلى امام ولا يجب نصبه، وهؤلاء محجوجون بالاجماع».

(٣) ودليلهم على ذلك الوجوب:

اولا : اجماع الصحابة والتابعين «لان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه، وتسليم النظر اليه فى امورهم، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار، واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام»(٣٨).

ثانيا: ان نصب الامام «يتوقف عليه اظهار الشعائر الدينية، وصلاح الرعية، وذلك كالامر بالمعروف والنهى عن المنكر، اللذين هما فرضان بلاشك.... وبدون نصب الامام لا يمكن القيام بهما. واذا لم يقم بهما احد لا تنتظم امور الرعية، بل يقوم التناهب فيما بينهم مقام التواهب، ويكثر الظلم، وتعم الفوضى، ولا تفصل الخصومات التى هى من ضروريات المجتمع الانسانى، ولاشك أن ما يتوقف عليه الفرض فرض، فكان نصب الامام فرضا كذلك... ومثل الامر والنهى فى التوقف على نصب الامام الكليات الست التى يجب المحافظة عليها بالزواجر والحدود التى بينها الشارع لا بغير ذلك. والكليات الست هى حفظ الدين... وحفظ النفس... وحفظ العقل وحفظ النسب ... وحفظ المال... وحفظ العرض (٣٩)» ا هـ.

(٤) لم نجد فيما مر بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أن اقامة الامام فرض من حاول أن يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله

الكريم. ولعمرى لو كان فى الكتاب دليل واحد لما تردد العلماء فى التنويه والاشادة به، أو لو كان فى الكتاب الكريم ما يشبه أن يكون دليلا على وجوب الامامة لوجد من انصار الخلافة المتكلفين، وانهم لكثير ، من يحاول أن يتخذ من شبه الدليل دليلا. ولكن المنصفين من العلماء والمتكلفين منهم قد اعجزهم ان يجدوا فى كتاب الله تعالى حجة لرأيهم فانصرفوا عنه إلى ما رأيت، من دعوى الاجماع تارة، ومن الالتجاء إلى أقيسة المنطق واحكام العقل تارة أخرى.

(٥) هنالك بعض آيات من القرآن كنا نحسب من الحق علينا ان نبين لك حقيقة معناها، حتى لا يخيل اليك انها تتصل بشئ من أمر الامامة، مثل قوله تعالى (٤ : ٦٢ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله تعالى (٤:٨٥ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) الخ. ولكنا لم نجد من يزعم أن يجد فى شئ من تلك الآيات دليلا، ولا من يحاول أن يتمسك بها، لذلك لا نريد أن نطيل القول فيها، تجنبا للغو البحث ، والجهاد مع غير خصم.

واعلم على كل حال أن أولى الامر قد حملهم المفسرون فى الآية الاولى على (٤٠) «أمراء المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية.. وقيل علماء الشرع، لقوله تعالى: ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم».

وأما أولو الامر فى الاية الثانية فهم «كبراء الصحابة البصراء بالامور، أو الذين كانوا يؤمرون منهم» (٤١) وكيفما كان الامر فالآيتان لا شئ فيهما يصلح دليلا على الخلافة التى يتكلمون فيها.

وغاية ما قد يمكن أرهاق الآيتين به أن يقال انهما تدلان على ان للمسلمين قوما منهم ترجع اليهم الامور.. وذلك معنى أوسع كثيرا وأعم من تلك الخلافة بالمعنى الذى يذكرون بل ذلك معنى يغاير الآخر ولا يكاد يتصل به.

وإذا أردت مزيدا فى هذا البحث فارجع إلى «كتاب الخلافة» للعلامة(٤٢) السير تومس ارنلد. ففى الباب الثانى والثالث منه بيان ممتع مقنع.

وقد يكون مما يؤنسك فى هذا المقام كلمة ذكرها صاحب المواقف بعد أن استدل على وجوب نصب الامام بإجماع المسلمين، قال «فان قيل لابد للاجماع من مستند، ولو كان لنقل نقلا متواترا لتوفر الدواعى اليه، قلنا استغنى عن نقله بالاجماع فلا توفر للدواعى ، أو نقول كان مستنده من قبيل مالا يمكن نقله من قرائن الاحوال التى لا يمكن معرفتها الا بالمشاهدة والعيان ، لمن كان فى زمنه عليه السلام (٤٣)» ا هـ.

فهو كما ترى يقول ، أن ذلك الاجماع لا يعرف له مستند ، وما كان صاحب المواقف ليلجأ إلى هذه القولة لو وجد فى كتاب الله تعالى ما يصلح له مستندا.

انه لعجب عجيب أن تأخذ بيديك كتاب الله الكريم، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس، فترى فيه تصريف كل مثل ، وتفصيل كل شئ من امر هذا الدين (٤٤) «ما فرطنا فى الكتاب من شئ» ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الامامة العامة أو الخلافة . ان فى ذلك لمجالا للمقال .

(٦) ليس القرآن وحده هو الذى أهمل تلك الخلافة ولم يتصد لها بل السنة كالقرآن أيضا، قد تركتها ولم تتعرض لها. يدلك على هذا ان العلماء لم يستطيعوا أن يستدلوا فى هذا الباب بشئ من الحديث، ولو وجدوا لهم فى الحديث دليلا لقدموه فى الاستدلال على الاجماع، ولما قال صاحب المواقف ان هذا الاجماع مما لم ينقل له سند.

(٧) يريد السيد محمد رشيد رضا أن يجد فى السنة دليلا على وجوب الخلافة ، فانه نقل عن سعد الدين (٤٥) التفتازانى فى المقاصد ما استدل به على وجوب الامامة، ولم يكن من بين تلك الادلة بالضرورة شئ من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام السيد رشيد يعترض على السعد، بانه «قد غفل هو وأمثاله عن الاستدلال على نصب الامام بالاحاديث الصحيحة الواردة فى التزام جماعة المسلمين وإمامهم، وفى بعضها التصريح بان من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية، وسيأتى حديث حذيفة المتفق عليه، وفيه قوله (ص) له «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم(٤٦)»

قبل أن نحدثك فى ذلك الاعتراض نلفتك الى انه يتضمن تأييد ما قلناه لك، من أن العلماء لم يستدلوا فى هذا الباب بشيء من الحديث.

وليس السيد رشيد بدعا فى ما يريد أن يحتج به، فقد سبقه الى ذلك (٤٧) ابن حزم الظاهرى بل قد زعم هذا :

أن القرآن والسنة قد وردا بايجاب الامام، من ذلك قول الله تعالى (٤ - ٦٢ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الائمة وايجاب الامامة (٤٨) .

وأنت اذا تتبعت كل ما يريدون الرجوع اليه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم تجد فيها شيئا اكثر من انها ذكرت الامامة او البيعة او الجماعة الخ مثل ما روى «الائمة من قريش» . «تلزم جماعة المسلمين» «من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية» «من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع، فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» « (٤٩) اقتدوا باللذين من بعدى ابى بكر وعمر» الخ الخ (٥٠)، وليس فى شيء من ذلك كله ما يصلح دليلا على ما زعموه، من أن الشريعة اعترفت بوجود الخلافة أو الامامة العظمى، بمعنى النيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم والقيام مقامه من المسلمين .

لا نريد أن نناقشهم فى صحة الاحاديث التى يسوقونها فى هذا الباب، وقد كان لنا فى مناقشتهم فى ذلك مجال فسيح، ولكنا نتنزل جدلا الى افتراض صحتها كلها، ثم لا نناقشهم فى المعنى الذى يريده الشارع من كلمات، امامة وبيعة وجماعة . الخ .

وقد كانت تحسن مناقشتهم فى ذلك، ليعرفوا أن تلك العبارات وامثالها فى لسان الشرع، لا ترمى الى شىء من المعانى التى استحدثوها بعد، ثم زعموا أن يحملوا عليها لغة الاسلام.

نتجاوز لهم عن كل تلك الابواب من الجدل، نقول ان الاحاديث كلها صحيحة، نقول ان الائمة واولى الامر ونحوهما اذا وردت فى لسان الشرع فالمراد به اهل الخلافة واصحاب الامامة العظمى . وأن البيعة معناها بيعة الخليفة، وأن جماعة المسلمين معناها حكومة الخلافة الاسلامية الخ .

نفترض ذلك كله، ونتنزل كل ذلك التنزل، ثم لا نجد فى تلك الاحاديث، بعد كل ذلك، ما ينهض دليلا لأولئك الذين يتخذون الخلافة عقيدة شرعية، وحكما من أحكام الدين .

تكلم عيسى بن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة، وأمر بأن يعطى مالقيصر لقيصر، فما كان هذا اعترافا من عيسى بان الحكومة القيصرية من شريعة الله تعالى، ولا مما يعترف به دين المسيحية، وما

كان لاحد ممن يفهم لغة البشر فى تخاطبهم أن يتخذ من كلمة عيسى حجة له على ذلك .

وكل ما جرى فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام من ذكر الامامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شىء اكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الاحكام الشرعية عن حكومة قيصر.

واذا كان صحيحا أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أمرنا أن نطيع إماما بايعناه، فقد أمرنا الله تعالى كذلك أن نفى بعهدنا لمشرك عاهدناه، وأن نستقيم له ما استقام لنا، فما كان ذلك دليلا على أن الله تعالى رضى الشرك، ولا كان أمره تعالى بالوفاء للمشركين مستلزما لاقرارهم على شركهم.

أولسنا مأمورين شرعا بطاعة البغاة والعاصين، وتنفيذ أمرهم اذا تغلبوا علينا وكان فى مخالفتهم فتنة تخشى، من غير إن يكون ذلك مستلزما لمشروعية البغى، ولا لجواز الخروج على الحكومة .

أو لسنا قد أمرنا شرعا باكرام السائلين، واحترام الفقراء، والاحسان اليهم، والرحمة بهم، فهل يستطيع ذو عقل أن يقول أن ذلك يوجب علينا شرعا أن نوجد بيننا فقراء ومساكين .

ولقد حدثنا الله تعالى عن الرق، وأمرنا أن نفك رقاب الارقاء، وامرنا أن نعاملهم بالحسنى، وأمرنا بكثير غير ذلك فى شأن الارقاء، فما دل ذلك على أن الرق مأمور به فى الدين، ولا على انه مرغوب فيه .

وكثيرا ما ذكر الله تعالى الطلاق، والاستدانة، والبيع، والرهن، وغيرها، وشرع لها احكاما، فما دل ذلك بمجرده على أن شيئا منها واجب فى الدين، ولا على أن لها عند الله شأنا خاصا .

فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد ذكر البيعة والحكم والحكومة وتكلم عن طاعة الامراء، وشرع لنا الاحكام فى ذلك فوجه ذلك ماقد عرفت وفهمت .

أما بعد فان دعوى الوجوب الشرعى دعوى كبيرة، وليس كل حديث وإن صح بصالح لموازنة تلك الدعوى .

الباب الثالث

الخلافة من الوجهة الاجتماعية
تتمة البحث

دعوي الاجماع - تمحيصها - انحطاط العلوم السياسية عند المسلمين - عناية المسلمين بعلوم اليونان - ثورة المسلمين علي الخلافة - اعتماد الخلافة علي القوة والقهر - الاسلام دين المساواة والعزة - الخلافة مقام عزيز وغيرة صاحبه عليه شديدة - الخلافة والاستبداد والظلم - الضغط الملوكي علي النهضة العلمية والسياسية - لا تقبل دعوي الاجماع - آخر أدلتهم علي الخلافة - لابد للناس من نوع من الحكم - الدين يعترف بحكومة - الحكومة غير الخلافة - لا حاجة بالدين ولا بالدنيا الي الخلافة - انقراض الخلافة في الاسلام - الخلافة الاسمية في مصر - النتيجة.

★★★

(١) زعموا وقد فاتهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم «أنه تواتر اجماع المسلمين فى الصدر الاول، بعد وفاة النبى

صلى الله عليه وسلم، على امتناع خلو الوقت من إمام، حتى قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته المشهورة، حين وفاته عليه السلام، ألا إن محمدا قد مات، ولابد لهذا الدين ممن يقوم به، فبادر الكل الى قبوله، وتركوا له اهم الاشياء، وهو دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يزل الناس على ذلك، فى كل عصر الى زماننا هذا، من نصب إمام متبع فى كل عصر» (٥١) أ هـ .

(٢) نسلم أن الاجماع حجة شرعية، ولا نثير خلافا فى ذلك مع (٥٢) المخالفين . ثم نسلم أن الاجماع فى ذاته ممكن (٥٣) الوقوع والثبوت، ولا نقول مع القائل (٥٤)، إن من ادعى الاجماع فهو كاذب . أما دعوى الاجماع فى هذه المسألة فلا نجد مساغا لقبولها على أى حال. ومحال اذا طالبناهم بالدليل أن يظفروا بدليل، على أننا مثبتون لك فيما يلى أن دعوى الاجماع هنا غير صحيحة ولا مسموعة، سواء أرادوا بها إجماع الصحابة وحدهم، أم الصحابة والتابعين، أم علماء المسلمين، أم المسلمين كلهم، بعد أن نمهد لهذا تمهيدا .

(٣) من الملاحظ البين فى تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى أسوأ حظ، وأن وجودها بينهم كان اضعف وجود، فلسنا نعرف لهم مؤلفا فى السياسة ولا مترجما، ولا نعرف لهم بحثا فى شىء من أنظمة الحكم ولا

اصول السياسة، اللهم الا قليلا لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية فى غير السياسة من الفنون .

ذلك وقد توافرت عندهم الدواعى التى تدفعهم الى البحث الدقيق فى علوم السياسة، وتظاهرت لديهم الاسباب التى تعدهم للتعمق فيها .

(٤) واقل تلك الاسباب انهم مع ذكائهم الفطرى، ونشاطهم العلمى، كانوا مولعين بما عند اليونان من فلسفة وعلم، وقد كانت كتب اليونان التى انكبوا على ترجمتها ودرسها كافية فى أن تغريهم بعلم السياسة وتحببه اليهم، فان ذلك العلم قديم، وقد شغل كثيرا من قدماء الفلاسفة اليونانيين، وكان له فى فلسفة اليونان، بل فى حياتهم، شأن خطير.

(٥) وهناك سبب آخر أهم، ذلك أن مقام الخلافة الاسلامية كان منذ الخليفة الأول، أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، الى يومنا هذا، عرضة للخارجين عليه المنكرين له، ولا يكاد التاريخ الاسلامى يعرف خليفة الا عليه خارج، ولا جيلا من الاجيال مضى دون أن يشاهد مصرعا من مصارع الخلفاء.

نعم ربما كان ذلك غالبا شأن الملوك فى كل أمة وكل ملة وجيل، ولكن لا نظن أن أمة من الامم تضارع المسلمين فى ذلك، فان معارضتهم للخلافة نشأت اذ نشأت الخلافة نفسها، وبقيت ببقائها .

ولحركة المعارضة هذه تاريخ كبير جدير بالاعتبار . وقد كانت المعارضة احيانا تتخذ لها شكل قوة كبيرة، ذات نظام بين، كما فعل

الخوارج فى زمن على بن أبى طالب، وكانت حينا تسير تحت ستار الانظمة الباطنية، كما كان لجماعة الاتحاد والترقى مثلا، وكانت تضعف احيانا حتى لا يكاد يحس لها وجود، وتقوى احيانا حتى تزلزل عروش الملوك، وكانت ربما سلكت طريق العمل متى استطاعت، وربما سارت على طريقة الدعوة العلمية أو الدينية على حسب ظروفها وأحوالها.

مثل هذه الحركة كان من شأنها أن تدفع القائمين بها الى البحث فى الحكم، وتحليل مصادره ومذاهبه، ودرس الحكومات وكل ما يتصل بها، ونقد الخلافة وما تقوم عليه، الى آخر ما تتكون منه علوم السياسة. لاجرم أن العرب قد كانوا أحق بهذا العلم، وأولى من يواليه.

(٦) فمالهم قد وقفوا حيارى أمام نلك العلم، وارتدوا دون مباحثه حسيرين؟ مالهم أهملوا النظر فى كتاب الجمهورية Republic لافلاطون وكتاب السياسة Politics لارسطو، وهم الذين بلغ من اعجابهم بارسطو أن لقبوه المعلم الاول؟ ومالهم رضوا أن يتركوا المسلمين فى جهالة مطبقة بمبادىء السياسة وأنوا ع الحكومات عند اليونان، وهم الذين ارتضوا أن ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان فى علم النحو، وأن يروضوهم برياضة بيدبا الهندى فى كتاب كليلة ودمنة. بل رضوا بأن يمزجوا لهم علوم دينهم بما فى فلسفة اليونان من خير وشر، وايمان وكفر ؟

لم يترك علماؤنا أن يهتموا بعلوم السياسة اهتمامهم بغيرها غفلة منهم عن تلك العلوم، ولا جهلا بخطرها، ولكن السبب فى ذلك هو ما نقصه عليك .

(٧) الأصل فى الخلافة عند المسلمين ان تكون «راجعة الى اختيار اهل العقد والحل (٥٥)» إذ «الامامة عقد تحصل بالمبايعة من أهل الحل والعقد لمن اختاروه إماما للامة، بعد التشاور بينهم (٥٦) » .

قد يكون معنى ذلك أن الخلافة تقوم عند المسلمين على أساس البيعة الاختيارية، وترتكز على رغبة اهل العقد والحل من المسلمين ورضاهم، وقد يكون من المعقول أن توجد فى الدنيا خلافة على الحد الذى ذكروا، غير أننا إذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر وجدنا أن الخلافة فى الاسلام لم ترتكز الا على اساس القوة الرهيبة، وأن تلك القوة كانت، الا فى النادر، قوة مادية مسلحة . فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه الا الرماح والسيوف، والجيش المدجج والبأس الشديد، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه، ويتم أمره .

قد يسهل التردد فى أن الثلاثة الاول من الخلفاء الراشدين مثلا شادوا مقامهم على اساس القوة المادية، وبنوه على قواعد الغلبة والقهر، ولكن أيسهل الشك فى أن عليا ومعاوية رضى الله تعالى عنهما لم يتبوأ عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيف، وعلى أسنة الرمح، وكذلك الخلفاء من بعد الى يومنا هذا . وما (٥٧) كان لامير المؤمنين محمد الخامس

سلطان تركيا، أن يسكن اليوم يلدز لولا تلك الجيوش التى تحرس قصره، وتحمى عرشه، وتفنى دون الدفاع عنه .

لا نشك مطلقا فى أن الغلبة كانت دائما عماد الخلافة، ولا يذكر التاريخ لنا خليفة الا اقترن فى اذهاننا بتلك الرهبة المسلحة التى تحوطه، والقوة القاهرة التى تظله، والسيوف المصلتة التى تزود عنه.

ولولا أن نرتكب شططا فى القول لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة الى وقتنا هذا ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة، وليتبين أن ذلك الذى يسمى عرشا لا يرتفع الا على رؤوس البشر، ولا يستقر إلا فوق اعناقهم. وان ذلك الذى يسمى تاجا، لا حياة له الا بما يأخذ من حياة البشر، ولا قوة الا بما يغتال من قوتهم، ولا عظمة له ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم - كالليل إن طال غال الصبح بالقصر - وان بريقه انما هو من بريق السيوف، ولهيب الحروب.

قد يلاحظ فى بعض سنى التاريخ أن تلك القوة المسلحة، التى هى دعاة الخلافة، لا تكون ظاهرة الوجود، محسوسة للعامة، فلا تحسبن ذلك شذوذا عما قررنا، فان القوة موجودة حتما، وعليها يرتكز مقام الخليفة، غير أنه قد يمر زمن لا تستعمل فيه تلك القوة، لعدم الحاجة الى

استعمالها، فاذا طال اختفاؤها عن الناس غفلوا عنها، وربما حسب بعضهم انها لم تكن موجودة . ولو كانت غير موجودة، حقيقة لما كان للخليفة بعدها وجود «وما الملك الا التغلب والحكم بالقهر» كما قال ابن خلدون (٥٨) «ومن كلام انو شروان فى هذا المعنى بعينه، الملك بالجند. وينسب إلى ارسطو، الملك نظام يعضده الجند (٥٩)» .

(٨) طبيعى ان الملك فى كل أمة لا يقوم الا على الغلب والقهر . «فان الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية، والشهوات البدنية، والملاذ النفسانية، فيقع فيه التنافس غالبا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه (٦٠) » وطبيعى فى الأمم الاسلامية بنوع خاص أن لا يقوم فيهم ملك، إلا بحكم الغلب والقهر أيضا . فان الاسلام هو الدين الذى لم يكتف بتعليم أتباعه فكرة الإخاء والمساواة، وتلقينهم مذهب ان الناس سواسية كأسنان المشط، وأن عبيدكم الذين هم ملك يمينكم اخوانكم فى الدين، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض . لم يكتف الاسلام بتعليم أتباعه ذلك المذهب تعليما نظريا مجردا، ولكنه أخذ المسلمين به أخذا عمليا، وأدبهم به تأديبا، ومرنهم عليه تمرينا، وشرع لهم الأحكام قائمة على الاخوة والمساواة، وأجرى عليهم الواقعات، وأراهم الحادثات، فأحسوا بالاخوة إحساسا، ولمسوا المساواة لمسا . ولم يتركهم رسولهم الأمين صلوات الله عليه وسلامه إلا

من بعد ما طبع قلوبهم على ذلك الدين وأشربها ذلك المذهب، ولم تقم دولتهم إلا حين كان ينادى أحدهم خليفته فوق المنبر، لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا.

من الطبيعى فى أولئك المسلمين الذين يدينون بالحرية رأيا، ويسلكون مذاهبها عملا . ويأنفون الخضوع إلا لله رب العالمين، ويناجون ربهم بذلك الاعتقاد فى كل يوم سبع عشرة مرة على الاقل، فى خمسة أوقاتهم للصلاة . من الطبيعى فى أولئك الاباة الاحرر أن يأنفوا الخضوع لرجل منهم أو من غيرهم ذلك الخضوع الذى يطالب به الملوك رعيتهم، إلا خضوعا للقوة، ونزولا على حكم السيف القاهر .

فذلك ما ذكرنا من أن الخلافة فى الاسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة، وأن تلك القوة كانت، إلا فى النادر، قوة مادية مسلحة .

إنه لا يعنينا كثيرا أن نعرف السر كله فى ذلك . وقد يكون السر هو ما ذكرنا، وربما كانت ثمت أسباب أخرى غير ما ذكرنا، وانما الذى يعنينا فى هذا المقام هو أن نقرر لك أن ارتكاز الخلافة على القوة حقيقة واقعة، لاريب فيها . وسيان عندنا بعد ذلك أن يكون هذا الواقع المحسوس جاريا على نواميس العقل أم لا، وموافقا لأحكام الدين أم لا.

لا معنى لقيام الخلافة على القوة والقهر إلا ارصادهما لمن يخرج على مقام الخلافة، أو يعتدى عليه، واعداد السيف لمن يمس بسوء ذلك العرش، ويعمل على زلزلة قوائمه .

وأنت تستطيع أن تدرك مثلا لذلك فى قصة البيعة ليزيد، حين قام أحد (٦١) الدعاة الى تلك البيعة خطيبا فى الحفل، فأوجز البيان فى بضع كلمات، لم تدع - لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا - قال «أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد «فمن أبى فهذا» وأشار الى سيفه .

(٩) كل شيء يؤخذ بحد السيف ويحمى بحده يكون عزيزا على النفس، لا يهون التسامح فيه، ولا التنازل عن شيء منه . وناهيك بمقام السيادة والسلطان فهو عزيز على النفس، حتى ولو جاء من غير عمل السيف، فاذا جاء من طريق القوة والغلب كانت النفس به أشد تعلقا، وفى الدفاع عنه أشد تفانيا، وكانت غيرتها عليه أكثر من الغيرة على المال والحرم، وولعها به فوق الولع بكل ما فى الدنيا من خيرات ونعم .

(١٠) واذا كان فى هذه الحياة الدنيا شيء يدفع المرء الى الاستبداد والظلم، ويسهل عليه العدوان والبغى، فذلك هو مقام الخلافة، وقد رأيت أنه أشهى ما تتعلق به النفوس، وأهم ما تغار عليه . واذا اجتمع الحب

البالغ والغيرة الشديدة، وأمدتهما القوة الغالبة، فلا شيء الا العسف، ولا حكم الا السيف.

دع عنك ذلك الحديث الذى نسوقه اليك قواعد عامة، ونظريات مجردة، ودونك وقائع التاريخ ثابتة فى لوح محفوظ.

أفهل غير حب الخلافة والغيرة عليها، ووفرة القوة، دفعت يزيد ابن معاوية الى استباحة ذلك الدم الذكى الشريف، دم الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهل غير تلك العوامل سلطت يزيد بن معاوية على عاصمة الخلافة الاولى، ينتهك حرمتها، وهى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهل استحل عبد الملك بن مروان بيت الله الحرام، ووطىء حماه، الا حبا فى الخلافة، وغيرة عليها، مع توافر القوة له .

وهل بغير تلك الاسباب صار أبو العباس عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس، سفاحا، وما كانت الا دماء المسلمين، وما كان بنو أمية الا من قومه .

كذلك تناحر بنو العباس أيضا، وبغى بعضهم على بعض، وفعل بنو سبكتكين مثل ذلك، وحارب الصالح نجم الدين الايوبى أخاه العادل أبا بكر بن الكامل . فخلعه وسجنه . وامتلأت دولتا المماليك والجراكسة بخلع الملوك وقتلهم. كل ذلك لم يكن الا أثرا من آثار حب الخلافة والغيرة

عليها، ومن وراء الحب والغيرة قوة قاهرة . وكذلك القول في دولة بنى عثمان (٦٢) .

(١١) الغيرة على الملك تحمل الملك على أن يصون عرشه من كل شيء قد يزلزل أركانه، أو ينقص من حرمته، أو يقلل من قدسيته، لذلك كان طبيعيا أن يستحيل الملك وحشا سفاحا، وشيطانا ماردا، اذا ظفرت يداه بمن يحاول الخروج عن طاعته، وتقويض كرسيه . وانه لطبيعي كذلك في الملك أن يكون عدوا لدودا لكل بحث ولو كان علميا يتخيل انه قد يمس قواعد ملكه، أو يريح من تلقائه ريح الخطر، ولو كان بعيدا .

من هنا نشأ الضغط الملوكي على حرية العلم، واستبداد الملوك بمعاهد التعليم، كلما وجدوا الى ذلك سبيلا، ولا شك أن علم السياسة هو من أخطر العلوم على الملك، بما يكشف من أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته الى آخره، لذلك كان حتما على الملوك أن يعادوه وان يسدوا سبيله على الناس .

ذلك تأويل ما يلاحظ من قصور النهضة الاسلامية في فروع السياسة، وخلو حركة المسلمين العلمية من مباحثها، ونكوص العلماء عن التعرض لها، على النحو الذى يليق بذكائهم، وعلى النحو الذى تعرضوا به لبقية العلوم .

(١٢) لسنا نعجب، والامر ما قد عرفت، من ضعف الحركة العلمية السياسية عند المسلمين، ولا من انحطاط شأن السياسة عندهم، ولكن العجب هو ان لا يموت بينهم ذلك العلم، وأن لا يقضى عليه القضاء كله. العجب العجيب هو ان يتسرب من خلال ذلك الضغط الخانق، والقوة المترصدة، والبأس المحيط، بعض مباحث السياسة الى مجالس العلم، وان يعرف لبعض قليل من العلماء، رأى فى مسألة سياسية على غير ما يهوى الخلفاء .

لو وضعنا هذا الكتاب كله فى بيان الضغط الملوكى الاسلامى على كل علم سياسى .وكل حركة سياسية، أو نزعة سياسية، لضاق هذا الكتاب وأضعافه عن استيعاب القول فى ذلك، ثم لعجزنا عن بيانه على وجه كامل، فحسبنا الآن تلك الاشارة المجملة، وعسى أن يمر بك قريبا بعض ما يتصل بهذا البحث .

ونعود بك الآن الى حيث كنا عند قولهم «ان الامة قد أجمعت على نصب الامام، فكان ذلك اجماعا دالا على وجوبه» .

لو ثبت عندنا ان الامة فى كل عصر سكتت على بيعة الامامة، فكان ذلك اجماعا سكوتيا، بل لو ثبت ان الامة بجملتها وتفصيلها قد اشتركت بالفعل فى كل عصر فى بيعة الامامة واعترفت بها ،فكان ذلك اجماعا صريحا، لو نقل الينا ذلك لأنكرنا ان يكون اجماعا حقيقيا، ولرفضنا أن نستخلص منه حكما شرعيا، وأن نتخذه حجة فى الدين .

وقد عرفت من قصة (٦٣) يزيد كيف كانت تؤخذ البيعة، ويغتصب الاقرار . وانتظر قليلا فلدينا مزيد .

تذكرنا قصة يزيد بن معاوية بقصة فيصل بن حسين بن على، كان أبوه حسين بن على أحد أمراء العرب، الذين انحازوا فى الحرب العظمى الى جانب الحلفاء، خروجا على الترك، وعلى سلطان الترك خليفة المسلمين، فقام أولاده فى بلاد العرب وفى جوانبها ينصرون جيوش الحلفاء نصرا مبينا، ويخذلون أعداءهم من الترك والالمان وغيرهم، وامتاز فيصل، أحد أولئك الاولاد، بالزلفى من الانجليز لحسن بلائه فى مساعدتهم، واخلاصه فى خدمتهم، فعينوه ملكا على الشام . ولم يكد يستقر بها حتى هاجمت ملكه جيوش الفرنسيين، فولى فيصل هاربا، تاركا مملكته وعرشه وغيرهما، حتى وصل الى انجلترا، ومن هناك حمله الانجليز الى بلاد العراق، ونصبوه عليها ملكا . وقد زعم الانجلير ان اهل الحل والعقد من أمة العراق انتخبوا فيصلا ليكون ملكا عليهم بالاجماع، اللهم الا ان يكون قد خالف فى ذلك نفر قليل لا يعتد بهم، كأولئك الذين دعاهم ابن خلدون من قبل شواذ .

ولعمرك ما كذب الانجليز، فانهم قد عملوا انتخابا، له كل مظاهر الانتخاب الحر القانونى، واخذوا يومئذ رأى الكثيرين من اهل الزعامة فى العراق، فكان رأيهم ان ينتخبوا فيصلا ملكا عليهم .

ولكن مما لاشك عندك فيه ان «هذا» الذى أخذ به خطيب معاوية البيعة ليزيد، هو عينه «هذا» الذى اخذ به الانجليز إجماع العراقيين لأمامة فيصل .أفهل تسمى ذلك اجماعا !.

لو ثبت الاجماع الذى زعموا لما كان اجماعا يعتد به، فكيف وقد قالت الخوارج لا يجب نصب الإمام أصلا (٦٤) وكذلك قال الأصم من المعتزلة ، وقاله غيرهم أيضا ، كما سبقت (٦٥) الاشارة إليه . وحسبنا فى هذا المقام نقضا لدعوى الاجماع أن يثبت عندنا خلاف الأصم والخوارج وغيرهم وإن قال ابن خلدون أنهم شواذ .

(١٣) عرفت أن الكتاب الكريم قد تنزه عن ذكر الخلافة والاشارة إليها ، وكذلك السنة النبوية قد أهملتها، وأن الإجماع لم ينعقد عليها ، أفهل بقى لهم من دليل فى الدين غير الكتاب أو السنة أو الاجماع ؟

نعم بقى لهم دليل آخر لا نعرف غيره ، هو آخر ما يلجأون إليه ، وهو أهون أداتهم وأضعفها .

قالوا إن الخلافة تتوقف عليها إقامة الشعائر الدينية وصلاح الرعية (٦٦) إلخ .

(١٤) المعروف الذى ارتضاه علماء السياسة أنه لابد لاستقامة الأمر فى أمة متدينة ، سواء كانت ذات دين أم لا دين لها : وسواء كانت مسلمة أم مسيحية أم يهودية أم مختلطة الاديان – لابد لأمة منظمة مهما كان معتقدها ، ومهما كان جنسها ولونها ولسانها ، من حكومة

تباشر شئونها، وتقوم بضبط الأمر فيها ، قد تختلف أشكال الحكومة وأوصافها بين دستورية واستبدادية، وبين جمهورية وبولشيفية وغير ذلك. قد يتنازع علماء السياسة في تفضيل نوع من الحكومة على نوع آخر، ولكنا لا نعرف لأحد منهم ولا من غيرهم نزاعا في أن أمة من الأمم لابد لها من نوع ما من أنواع الحكم . ولهم على ذلك أدلة ليس من غرضنا هنا أن نعرض لها، فليس ذلك بموضعها، على أننا لا نشك في أن ذلك الرأي في جملته صحيح، وأن الناس لا يصلحون فوضى لا سراة لهم، ولعل أبا بكر رضي الله تعالى عنه إنما كان يشير إلى ذلك الرأي حينما قال في خطبته التي سبقت الإشارة إليها «لابد لهذا الدين ممن يقوم به» ولعل الكتاب الكريم ينحو ذلك المذهب أحيانا . قال تعالى في سورة الزخرف «أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمت ربك خير مما يجمعون ».

وقال تعالى في سورة المائدة «وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في

ما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين» الخ .

(١٥) يمكن حينئذ أن يقال بحق إن المسلمين، إذا اعتبرناهم جماعة منفصلين وحدهم، كانوا كغيرهم من أمم العالم كله، محتاجين إلى حكومة تضبط أمورهم، وترعى شئونهم .

إن يكن الفقهاء أرادوا بالامامة والخلافة ذلك الذى يريده علماء السياسة بالحكومة كان صحيحاً ما يقولون، من أن إقامة الشعائر الدينية، وصلاح الرعية، يتوقفان على الخلافة، بمعنى الحكومة، فى أى صورة كانت الحكومة، ومن أى نوع . مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية . لا ينتج لهم الدليل ابعد من ذلك . أما أن ارادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم الذى يعرفون فدليلهم أقصر من دعواهم، وحجتهم غير ناهضة .

(١٦) الواقع المحسوس الذى يؤيده العقل، ويشهد به التاريخ قديما وحديثا، إن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة يسميه الفقهاء خلافة . ولا على أولئك الذين يلقبهم الناس خلفاء . والواقع ايضا أن صلاح المسلمين فى دنياهم لا يتوقف على شىء من ذلك . فليس بنا من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا . ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الاسلام وعلى المسلمين، وينبوع شر وفساد، وربما بسطنا لك ذلك بعد، أما الآن فحسبنا أن نكشف لك عن الواقع المحسوس لتؤمن بأن ديننا غنى عن تلك الخلافة الفقهية، ودنيانا كذلك .

(١٧) علمت مما نقلنا (٦٧) لك عن ابن خلدون «أنه قد ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب، وفناء جيلهم، وتلاشى أحوالهم، وبقى الأمر ملكا بحتا .... وليس للخليفة منه شىء» أفهل علمت أن شيئا من ذلك قد صدع أركان الدين، وأضاع مصلحة المسلمين على وجه كان يمكن للخلافة أن تتلافاه لو وجدت .

منذ منتصف القرن الثالث الهجرى أخذت الخلافة الاسلامية تنقص من أطرافها، حتى لم تعد تتجاوز ما بين لابتى دائرة ضيقة حول بغداد «وصارت(٦٨) خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته من بعده، وبلاد البحرين للقرامطة، واليمن لابن طباطبا، وأصفهان وفارس لبنى

بويه، والبحرين وعمان لفرع من عائلة القرامطة، قد أسس فيها دولة مستقلة ... والاهواز وواسط لمعز الدولة، وحلب لسيف الدولة ومصر لأحمد بن طولون، ومن بعده للملوك الذين تغلبوا عليها وامتلكوها واستقلوا بأحكامها، كالاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك وغيرهم» . حصل ذلك فما كان الدين أيامئذ فى بغداد مقر الخلافة خيراً منه فى غيرها من البلاد التى انسلخت عن الخلافة، ولا كانت شعائره أظهر، ولا كان شأنه أكبر، ولا كانت الدنيا فى بغداد أحسن، ولا شأن الرعية أصلح .

(١٨) هوت الخلافة عن بغداد فى منتصف القرن السابع الهجرى، حين هاجمها التتر، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله، وقتلوا معه أهله وأكابر دولته «وبقى (٦٩) الاسلام ثلاث سنين بدون خليفة» .

(١٩) وكان الملك فى مصر يومئذ للظاهر بيبرس . ولأمر ما أخذ ذلك الداهية ينبش بين مصارع العباسيين، حتى أعثره الحظ برجل ، زعموا أنه من فلول الخلافة العباسية، ومن أنقاض بيتها، وكذلك أراده الظاهر أن يكون، فأنشأ منه بيتا للخلافة فى مصر، يأخذ الظاهر بجميع مفاتيحه وأغلاقه، واتخذ هياكل سماهم خلفاء المسلمين، وحمل المسلمين على أن يدينوا لجلالتهم، وفى يديه وحده أزمة تلك الهياكل، وتصريف حركاتهم وسكناتهم، وأطراف ألسنتهم، ثم كانت تلك سنة الملوك

الجراكسة فى مصر بعد الملك الظاهر، إلى أن أخذ الخلافة الملوك العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ .

هل كان فى شيء من مصلحة المسلمين لدينهم أو دنياهم تلك التماثيل الشلاّء، التى كان يقيمها ملوك مصر ويلقبونها خلفاء . بل تلك الاصنام يحركونها، والحيوانات يسخرونها ؟ ثم ما بال تلك البلاد الاسلامية الواسعة غير مصر التى نزعت عنها ربقة الخلافة، وأنكرت سلطانها، وعاشت ومازال يعيش كثير منها بعيدا عن ظل الخلفاء، وعن الخضوع الوثنى لجلالهم الدينى المزعوم ؟ أرأيت شعائر الدين فيها دون غيرها أهملت، وشئون الرعية عطلت - أم هل أظلمت دنياهم لما سقط عنها كوكب الخلافة، وهل جفتهم رحمة الارض والسماء، لما بان عنهم الخلفاء، كلا .

بانوا فما بكت الدنيا لمصرعهم ولا تعطلت الاعياد والجمع

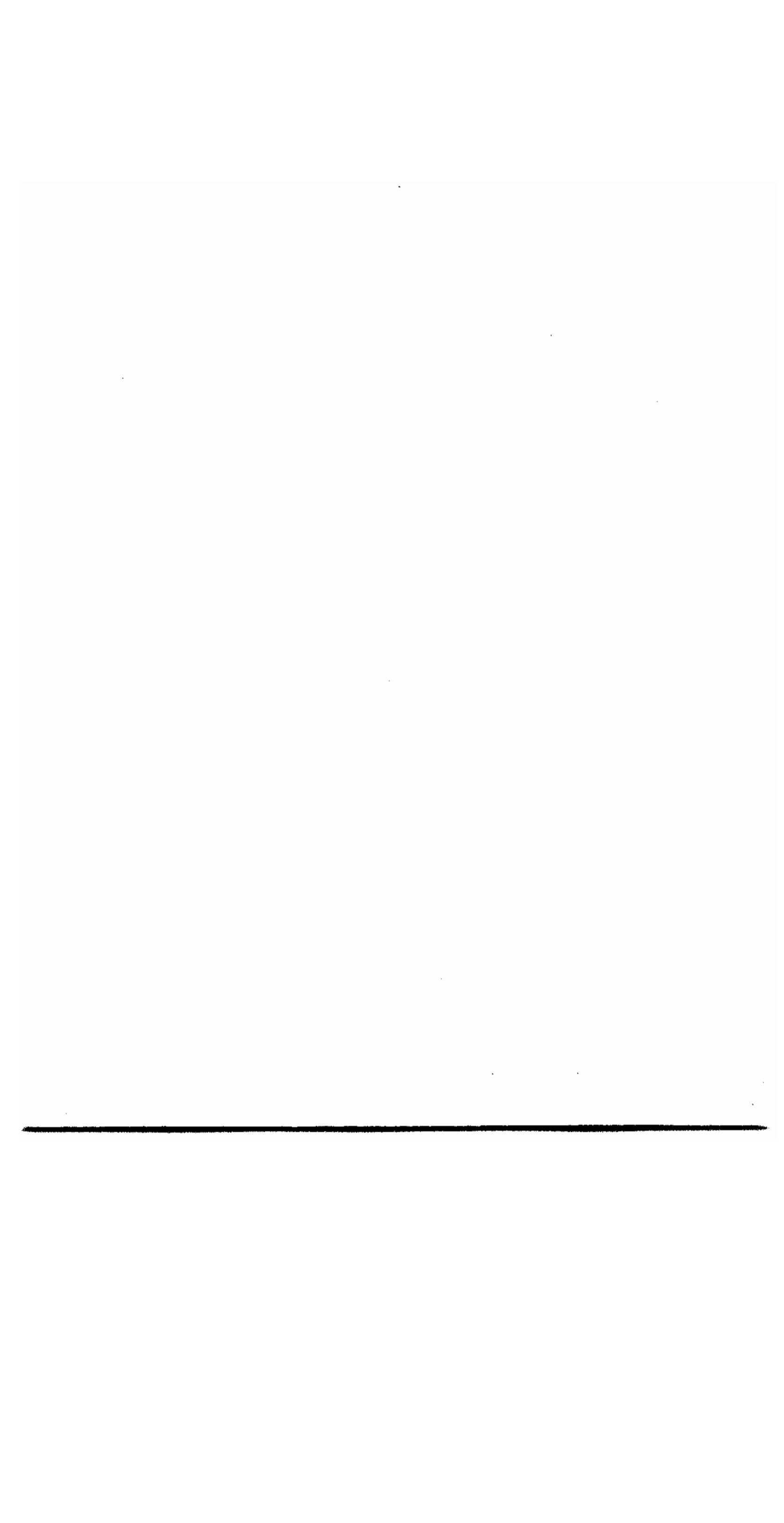
(٢٠) معاذ الله لا يريد الله جل شأنه لهذا الدين، الذى كفل له البقاء، أن يجعل عزه وذله منوطين بنوع من الحكومة، ولا بصنف من الامراء، ولا يريد الله جل شأنه لعباده المسلمين أن يكون صلاحهم وفسادهم رهن الخلافة، ولا تحت رحمة الخلفاء .

الله جل شأنه أحفظ لدينه، وأرحم بعباده .

عسى أن يكون فيما أسلفنا مقنع لك بأن تلك التى دعوها الخلافة

أو الإمامة العظمى لم تكن شيئاً قام على أساس من الدين القويم، أو العقل السليم، وبأن ما زعموا أن يكون برهانا لها هو إذا نظرت وجدته غير برهان .

ولعل من حقك علينا أن تسأل الآن عن رأينا الخاص في الخلافة وفي منشئها . وأن علينا أن نأخذ بك في بيان ذلك . مستمدين من الله جل شأنه حسن المعونة والهدى والتوفيق .



الكتاب الثانى

الحكومة والاسلام

الباب الأول

نظام الحكم فى عصر النبوة

قضاؤه (ﷺ) - هل ولي (ﷺ) قضاة - قضاء عمر - قضاء على - قضاء معاذ وأبي موسي - صعوبة البحث عن نظام القضاء في عصر النبوة - خلو العصر النبوي من مخايل الملك - إهمال عامة المؤرخين البحث في نظام الحكم النبوي - هل كان (ﷺ) ملكا ؟

★★★

(١) لاحظنا إذا كنا نبحث عن تاريخ القضاء زمن النبى صلى الله عليه وسلم، أن حال القضاء فى ذلك الوقت لا يخلو من غموض وابهام يصعب معهما البحث، ولا يكاد يتيسر معهما الوصول إلى رأى ناضج، يقره العلم ، وتطيب به نفس الباحث .

لا شك فى أن القضاء بمعنى الحكم فى المنازعات وفضها، كان موجودا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، كما كان موجودا عند العرب وغيرهم، قبل أن يجىء الاسلام . وقد رفعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم خصومات فقضى فيها . وقال صلى الله عليه وسلم (٧٠)

«أنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق اخيه شيئا بقوله، فانما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذها» .

وفى التاريخ الصحيح شىء من قضائه عليه السلام فيما كان يرفع إليه . ولكننا إذا أردنا أن نستنبط شيئا من نظامه صلى الله عليه وسلم فى القضاء نجد أن استنباط شىء من ذلك غير يسير، بل غير ممكن، لأن الذى نقل الينا من أحاديث القضاء النبوى لا يبلغ أن يعطيك صورة بينة لذلك القضاء ولا لما كان له من نظام، إن كان له نظام .

(٢) لاحظنا أن حال القضاء زمن النبى صلى الله عليه وسلم غامضة ومبهمة من كل جانب، حتى لم يكن من السهل على الباحث أن يعرف هل ولى صلى الله عليه وسلم أحدا غيره القضاء أم لا .

هنالك ثلاثة من الصحابة يعدهم جمهور العلماء ممن ولى القضاء فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعضهم (٧١) «وقد قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاء لعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهم» ا هـ وينبغى أن يضاف إليهم أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه، فقد كان فى عمله على ما يظهر، نظيراً لمعاذ بن جبل سواء بسواء.

(٣) أما أن عمر رضى الله عنه تقلد القضاء فى زمن النبى صلى

الله عليه وسلم، فرواية غريبة من الجهة التاريخية ويظهر أنها أنما أخذت بطريق الاستنساج(٧٢) ففى سنن الترمذى، أن عثمان قال لعبد الله بن عمر اذهب فاقض بين الناس . قال أو تعافينى ياأمير المؤمنين، قال وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه شىء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل . وإنى لا أجد من أسأله الخ» .

(٤) وأما على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن، وهو شاب، ليقضى بينهم ... وروى أبو داود، رحمه الله تعالى، عن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، قال بعثنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن قاضيا، وأنا حديث السن، ولا علم لى بالقضاء، وقال إن الله سيهدى قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء . فمازلت قاضيا، وما شككت فى قضاء بعد، كذا ذكره ابو عمرو بن عبد البر فى الاستيعاب . وقال ايضا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه، «أقضاهم على بن أبى طالب» . ا هـ .

والذى فى البخارى (٧٣) مما يتصل بهذا الموضوع . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعث خالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع،

مع جماعة من الصحابة، ثم بعث عليا بعد ذلك مكانه ليقبض الخمس، وقدم على من اليمن بسعايته إلى مكة ، والنبى صلى الله عليه وسلم بها .

ونقل على بن برهان الدين الحلبى (٧٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعث عليا كرم الله وجهه، فى سرية إلى اليمن، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى كتابه خر ساجداً، ثم جلس، فقال السلام على همدان . وتتابع أهل اليمن إلى الاسلام . وهذه هى السرية الأولى . والسرية الثانية بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليا كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج من أرض اليمن فى ثلاثمائة فارس، فغزاهم ... وجمع الغنائم ... ثم رجع على كرم الله وجهه، فوافى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة، قدمها لحجة الوداع . الخ .

(٥) «وأما معاذ (٧٥) بن جبل، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً إلى الجند من اليمن، يعلم الناس القرآن، وشرائع الاسلام، ويقضى بينهم، وجعل له قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، وذلك عام فتح مكة، فى السنة الثامنة من الهجرة، والجند بفتح الجيم والنون معا، بلدة باليمن » .

وقال البخارى (٧٦) فى هذا الموضوع . بعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال وبعث كل واحد منهما على مخلاف، واليمن مخلافان، ثم قال، يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا .

وفى حديث آخر للبخارى، أنه قال لمعاذ بن جبل، انك ستأتى قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .

ويقترب من هذا رواية السيد أحمد زينى دحلان فى السيرة النبوية (٧٧) قال «بعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الودا ع، فى السنة العاشرة، وقيل فى التاسعة .. وقيل عام الفتح سنة ثمان، وكل واحد منهما على مخلاف، وكان جهة معاذ العليا صوب عدن، وكان من عمله الجند، وكانت جهة أبى موسى السفلى ا هـ .

وأخرج (٧٨) أحمد وابو داود والترمذى وغيرهم، من حديث الحارس ابن عمرو، بن أخى المغيرة بن شعبة، قال حدثنا ناس من أصحاب،

معاذ عن معاذ، قال لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله، قال فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله، قال فإن لم تجد فى سنة رسول الله ولا فى كتاب الله ؟ قال أجتهد رأيى ولا آلو . قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله ا هـ .

(٦) تلك الروايات المختلفة، التى قصصنا عليك نموذجا منها، تريك كيف يسوغ لنا أن نستنتج ما قلناه لك قبل، من أنه لا تتيسر الاحاطة بشىء كثير من أحوال القضاء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، وها أنت ذا قد رأيت كيف اختلفت الرواية عن حادثة واحدة بعينها . فبعث على إلى اليمن يرويه أحدهم أنه تولية للقضاء، ويروى الآخر أنه كان لقبض الخمس من الزكاة، ومعاذ بن جبل كذلك، ذهب إلى اليمن قاضيا فى رأى، وغازيا فى رأى، ومعلما فى رأى .

ونقل صاحب السيرة النبوية (٧٩) خلافا فى أن معاذا كان واليا أو قاضيا «فقال ابن عبد البرانة كان قاضيا، وقال الغسانى أنه كان أميراً على المال . وحديث ابن ميمون فيه التصريح بأنه كان أميراً على الصلاة وهذا يرجح أنه كان واليا» ا هـ .

(٧) وأن البحث العميق فيما كان عليه القضاء زمن النبى صلى

الله عليه وسلم، وإطالة التفكير فى ذلك، وحسن التفهم لما وصل إلينا متصلا بهذا الموضوع من الأحاديث والأخبار، كل أولئك يدفعنا إلى البحث بوجه عام فى نظام الحكومة الاسلامية، أيام النبى صلى الله عليه وسلم، وفى كيفية تدبير ذلك الملك الاسلامى، إن ساغ لنا بحق أن نسمى ما فتح الله لنبيه من البلاد دولة وملكا .

ذلك بأننا وجدنا عند البحث فى نظام القضاء فى عصر النبوة أن غير القضاء أيضا من أعمال الحكومات ووظائفها الاساسية لم يكن فى أيام الرسالة موجوداً على وجه واضح لا لبس فيه، حتى يستطيع باحث منصف أن يذهب إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعين فى البلاد التى فتحها الله له ولاة مثلا لادارة شئونها، وتدبير أحوالها وضبط الأمر فيها. وما يروى من ذلك فكله عبارة عن توليته أميراً على الجيش، أو عاملا على المال، أو إماما للصلاة ، أو معلما للقرآن، أو داعيا إلى كلمة الاسلام . ولم يكن شيء من ذلك مطرداً، وانما كان يحصل لوقت محدود، كما ترى فيمن كان يستعملهم صلى الله عليه وسلم على البعوث والسرايا، أو يستخلفهم على المدينة أذا خرج للغزو .

إذا نحن تجاوزنا عمل القضاء والولاية إلى غيرهما من الاعمال، والتى لا يكمل معنى الدولة الا بها، كالعمالات التى تتصل بالأموال ومصارفها (المالية) وحراسة الانفس والأموال (البوليس) وغير ذلك مما

لا يقوم بدونه أقل الحكومات وأعرقها فى البساطة، فمن المؤكد أننا لا نجد فيما وصل الينا من ذلك عن زمن الرسالة شيئا واضحا يمكننا ونحن مقتنعون ومطمئنون، أن نقول أنه كان نظام الحكومة النبوية .

(٨) ومما قد يستأنس به فى هذا الموضوع، أننا لاحظنا أن عامة المؤلفين، من رواة الاخبار يعنون فى الغالب، إذا ترجموا لخليفة من الخلفاء أو ملك من الملوك، بذكر عماله من ولاة وقواد وقضاة الخ ويفردون له بحثا خاصا، يدل على أنهم عرفوا تماما قيمة ذلك البحث من الجهة العلمية، فصرفوا من الجهد فيه والعناية به ما يناسبه، ولكنهم فى تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم، إن عالجوا ذلك البحث رأيتهم يزجون الحديث فيه مبعثرا غير متسق، ويخوضون غمار ذلك البحث على نسق لا يماثل طريقتهم فى بحث بقية العصور . ما رأينا مؤرخا شذ عن ذلك، اللهم إلا ما سننقله لك بعد عن رفاعة (٨٠) بك رافع الطهطاوى، فى كتاب نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز، نقلا عن صاحب كتاب تخريج الدلالات السمعية .

(٩) كلما أمعنا تفكيراً فى حال القضاء زمن النبى صلى الله عليه وسلم، وفى حال غير القضاء أيضا، من أعمال الحكم، وأنوا ع الولاية، وجدنا ابهاما فى البحث يتزايد، وخفاء فى الأمر يشتد، ثم لا تزال حيرة الفكر تنقلنا من لبس إلى لبس، وتردنا من بحث إلى بحث، إلى أن ينتهى

النظـر بنا إلى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر . وإذا نحن إزاء عويصة أخرى هى كبرى تلكم المعضلات، وهى منشأ ما لقينا من حيرة واضطراب هى الأصل وما عداها فروع، وهى الأم وما عداها تبع .

تلك مشكلة إذا وفق العقل لحلها فقد هانت من بعدها المشاكل، وانجلى كل لبس وإبهام .

إننا لنقترب بك إلى هذه المشكلة ونحن نقدم رجلا ونؤخر أخرى، أما أولا فلأن حلها عسير، ومزالق الفكر فيها كثيرة .. وما لم يكن عون من الله تعالى أى عون فلا أمل فى الوصول إلى وجه الصواب فيها .

وأما ثانيا فلأن المغامرة فى بحث هذا الموضوع قد تكون مثاراً لغارة يشب نارها أولئك الذين لا يعرفون الدين إلا صورة جامدة، ليس للعقل أن يحوم حولها، ولا للرأى أن يتناولها .

ولكنا نستعين بالله تعالى، ونرجو منه جل شأنه حسن التوفيق، عسى أن نكشف لك ما غمض، ونفتح عليك ما استغلق، ونصل بك إلى الحق أبلج الوجه، واضح الغرة، إن شاء الله .

فاعلم أن المسألة الآن هى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان صاحب دولة سياسية ورئيس حكومة كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟.

الباب الثانى

الرسالة والحكم

لا حرج في البحث عما إذا كان «ﷺ» ملكا أم لا - الرسالة شيء والملك شيء آخر - القول بأنه «صلعم» كان ملكا أيضا - بعض العلماء يشرح بالتفصيل الدقيق نظام حكومة النبي «ﷺ» - بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الدولة زمن النبي «ﷺ» - الجهاد - الأعمال المالية - أمراء قيل أن النبي «ﷺ» استعملهم علي البلاد - هل كان تأسيس النبي لدولة سياسية جزءاً من رسالة ؟ - الرسالة والتنفيذ - ابن خلدون يري أن الاسلام شرع تبليغي وتنفيذي - اعتراض علي ذلك الرأي - القول بأن الحكم النبويَ جمع كل دقائق الحكومة - احتمال جهلنا بنظام الحكومة النبوية - مناقشة ذلك الوجه - احتمال أن تكون البساطة الفطرية هي بِنظام الحكم النبوي - بساطة هذا الدين - مناقشة ذلك الرأي :

★★★

(١) لا يهولنك البحث فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ملكا أم لا، ولا تحسبن أن ذلك البحث ذو خطر فى الدين قد يخشى شره على ايمان الباحث، فالأمر، إن فطنت إليــه، أهون من أن يخرج مؤمنا من حظيرة الايمان، بل وأهون من أن يزحزح المتقى عن حظيرة التقوى.

وإنما قد يبدو لك الأمر خطيرا لأنه يتصل بمقام النبوة، ويرتبط بمركز الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه على ذلك لا يمس فى الحقيقة شيئاً من جوهر الدين، ولا أركان الاسلام. وربما كان ذلك البحث جديداً فى الإسلام لم يتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح ولم يستقر للعلماء فيه رأى واضح، واذاً فليس بدعاً فى الدين، ولاشذوذاً عن مذاهب المسلمين، أن يذهب باحث إلى أن النبى عليه السلام كان رسولا وملكا، وليس بدعاً ولا شذوذاً أن يخالف فى ذلك مخالف، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التى تعارف العلماء بحثها، واستقر لهم فيها مذهب، وهو أدخل فى باب البحث العلمى منه فى باب الدين فأقدم ولاتخف، إنك من الآمنين.

(٢) أنت تعلم أن الرسالة غير الملك، وأنه ليس بينهما شئ من التلازم بوجه من الوجوه، وأن الرسالة مقام والملك مقام آخر، فكم من ملك ليس نبياً ولا رسولاً، وكم لله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكا بل إن أكثر من عرفنا من الرسل انما كانوا رسلا فحسب.

ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية، وزعيم المسيحيين، وكان مع هذا يدعو إلى الإذعان لقيصر، ويؤمن بسلطانه، وهو الذى أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة (٨١) «اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لّله للّه».

وكان يوسف بن يعقوب عليه السلام، عاملا من العمال، فى دولة الريان بن الوليد، فرعون مصر. ومن بعده كان عاملا لقابوس بن مصعب (٨٢) .

ولانعرف فى تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك، إلا قليلا.

فهل كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ممن جمع الله له بين الرسالة والملك، أم كان رسولا غير ملك؟

(٣) لانعرف لأحد من العلماء رأيا صريحاً فى ذلك البحث ولانجد من تعرض للكلام فيه، بحسب ما أتيح لنا. ولكنا قد نستطيع بطريق الاستنتاج أن نقول: إن المسلم العامى يجنح غالباً إلى اعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ملكا رسولا، وأنه أسس بالإسلام دولة سياسية مدنية، كان هو ملكها وسيدها لعل ذلك هو الرأى الذى يتلاءم مع ذوق المسلمين العام، ومع ما يتبادر من أحوالهم فى الجملة، ولعله أيضا هو رأى جمهور العلماء من المسلمين، فانك تراهم، اذا عرض لهم

الكلام فى شئ يتصل بذلك الموضوع، يميلون إلى اعتبار الإسلام وحدة سياسية، ودولة أسسها النبى صلى الله عليه وسلم.

وكلام ابن خلدون فى مقدمته ينحو ذلك المنحى، فقد جعل الخلافة التى هى نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا، شاملة للملك والملك مندرجاً تحتها الخ (٨٣).

(٤) وقد نقل المرحوم رفاعة بك رافع عن كتاب تخريج الدلالات السمعية ما يشبه أن يكون صريحاً فى ذلك الرأى، بل الواقع أنه صريح، قال ملخصه (٨٤) «إن من لم ترسخ فى المعارف قدمه، وليس لديه من أدوات الطالب إلا يداه وقلمه، يحسب كثيراً من الاعمال السلطانية مبتدعاً لا متبعاً، وأن العامل على خطة دنيوية، ليس عاملا فى عمالة سنية، ويظن أن عمالته دنية. فلهذا جمعت ما علمته من تلك العمالات فى كتاب يوضح نشرها، ويبين الامر لمن جهل أمرها، فذكرت فى كل عماله من ولاه عليها الرسول من الصحابة، ليعلم ذلك من يليها الآن، فيشكر الله على أن استعمله فى عمل شرعى، كان يتولاه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلح له، وأقامه المولى فى ذلك مقامه» اهـ.

ثم لخص رفاعة بك الكلام فى الوظائف والعمالات البلدية، خصوصية وعمومية، أهلية داخلية وجهادية، التى هى عبارة عن نظام

السلطنة الاسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع، والعمالات الشرعية، على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجمع فى ذلك بين الكلام على خدمه الخاصة به صلى الله عليه وسلم، وما يضاف إلى الامامة العظمى من الاعمال الاولية، كالوزارة والحجابة وولاية البدن (٨٥) والسقاية (٨٦) والكتابة وما يضاف إلى العمالات الفقهية من معلم القرآن ومعلم الكتابة ومعلم الفقه، والمفتى وإمام الصلاة والمؤذن... ثم ذكر التراجمة وكتابة الجيش والعطاء والديوان والزمام، وبين أن للديوان أصلا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر العمالات المتعلقة بالاحكام، كالامارة العامة على النواحى، والقضاء وما يتعلق به من إشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث، والنفقات، والقسام وناظر البناء للتحديد، وذكر المحتسب والمنادى، ومتولى حراسة المدينة، والجاسوس لاهل المدينة، والسجان ومقيمى الحدود، ثم ذهب يعدد الاعمال الحكومية واحداً بعد واحد، حتى لم يكد يدع شيئاً، وحتى قال رفاعة بك: إن ذلك شئ لم يف به غالب مؤلفى كتب السير بل جميعهم.

(٥) لاشك فى أن الحكومة النبوية كان فيها بعض مايشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك.

(٦) وأول ما يخطر بالبال مثالا من أمثلة الشئون الملكية، التى

ظهرت أيام النبى صلى الله عليه وسلم، مسألة الجهاد، فقد غزا صلى الله عليه وسلم المخالفين لدينه من قومه العرب، وفتح بلادهم، وغنم أموالهم، وسبى رجالهم ونسائهم. ولاشك فى أنه صلى الله عليه وسلم قد امتد بصره إلى ما وراء جزيرة العرب، واستعد للانسياب بجيشه فى أقطار الأرض، وبدأ (٨٧) فعلا يصارع دولة الرومان فى الغرب، ويدعو إلى الانقياد لدينه كسرى الفرس فى الشرق، ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر الخ.

وظاهر أول وهلة أن الجهاد لايكون لمجرد الدعوة إلى الدين، ولا لحمل الناس على الايمان بالله ورسوله، وإنما يكون الجهاد لتثبيت السلطان، وتوسيع الملك.

دعوة الدين دعوة إلى الله تعالى، وقوام تلك الدعوة لايكون إلا البيان، وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع فأما القوة والاكراه فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها هداية القلوب، وتطهير العقائد، وما عرفنا فى تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الإيمان بالله بحد السيف، ولا غزا قوماً فى سبيل الاقناع بدينه، وذلك هو نفس المبدأ الذى قرره النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يبلغ من كتاب الله.

قال تعالى (٨٨) «لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى» وقال: (٨٩) «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم

بالتى هى أحسن». وقال: (٩٠) «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر»، (٩١) فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فانما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد» «(٩٢) أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين».

تلك مبادئ صريحة فى أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، كرسالة إخوانه من قبل، انما تعتمد على الاقناع والوعظ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش، واذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة، فذلك لايكون فى سبيل الدعوة إلى الدين، وابلاغ رسالته إلى العالمين، ومايكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك، ولتكوين الحكومة الاسلامية ولا تقوم حكومة إلا على السيف، وبحكم القهر والغلبة، فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوى ومعناه.

(٧) قلنا أن الجهاد كان آية من آيات الدولة الإسلامية، ومثالا من أمثلة الشئون الملكية، وإليك مثلا آخر:

كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم عمل كبير متعلق بالشئون المالية، من حيث الايرادات والمصروفات، ومن حيث جمع المال من جهاته العديدة، «الزكاة والجزية والغنائم الخ». ومن حيث توزيع ذلك كله بين مصارفه، وكان له صلى الله عليه وسلم سعاة وجباة، يتولون ذلك له،

ولاشك أن تدبير المال عمل ملكي، بل هو أهم مقومات الحكومات، على أنه خارج عن وظيفة الرسالة من حيث هى، وبعيد عن عمل الرسل باعتبارهم رسلا فحسب.

(٨) وقد يكون من أقوى الأمثلة فى هذا الباب ماروى الطبرى بإسناده، أن النبى صلى الله عليه وسلم وجه إمارة اليمن وفرقها بين رجاله، وأفرد كل رجل بحيِّزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء ابن باذام، وعلى عك والاشعرين الطاهر بن أبى هالة، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى، وعلى الجند يعلى ابن أبى أمية، وكان معاذ معلما يتنقل فى عمالة كل عامل باليمن وحضرموت (٩٣) الخ.

هنالك كثير غير ما ذكرنا قد وجد فى العصر النبوى، مما يمكن اعتباره أثراً من آثار الدولة، ومظهراً من مظاهر الحكومة، ومخايل السلطنة، فمن نظر إلى ذلك من هذه الجهة، ساغ له القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان رسول الله تعالى، وكان ملكاً سياسيا أيضاً.

(٩) إذا ترجح عند بعض الناظرين اعتبار تلك الأمثلة، واطمأن إلى الحكم بأنه صلى الله عليه وسلم كان رسولا وملكا، فسوف يعترضه

حينئذ بحث آخر جدير بالتفكير. فهل كان تأسيسه صلى الله عليه وسلم للمملكة الاسلامية، وتصرفه فى ذلك الجانب شيئا خارجاً عن حدود رسالته صلى الله عليه وسلم، أم كان جزءا مما بعثه الله له وأوحى به اليه؟

فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الإسلام، وخارج عن حدود الرسالة، فذلك رأى لانعرف فى مذاهب المسلمين ما يشاكله، ولانذكر فى كلامهم ما يدل عليه، وهو على ذلك رأى صالح لان يذهب إليه، ولانرى القول به يكون كفراً ولا إلحاداً، وربما كان محمولا على هذا المذهب مايراه بعض الفرق الاسلامية من انكار الخلافة فى الاسلام مرة واحدة.

ولايهولنك أن تسمع أن للنبى صلى الله عليه وسلم عملا كهذا خارجاً عن وظيفة الرسالة، وان ملكه الذى شيده هو من قبيل ذلك العمل الدنيوى الذى لاعلاقة له بالرسالة، فذلك قول إن أنكرته الأذن، لأن التشدق به غير مألوف فى لغة المسلمين، فقواعد الاسلام، ومعنى الرسالة، وروح التشريع، وتاريخ النبى صلى الله عليه وسلم، كل ذلك لايصادم رأيا كهذا ولايستفظعه بل ربما وجد ما يصلح له دعامة وسندا، ولكنه على كل حال رأى نراه بعيداً.

(١٠) وأما أن المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متمم لها، وداخل فيها، فذلك هو الرأى الذى تتلقاه نفوس المسلمين فيما يظهر بالرضا،

وهو الذى تشير اليه أساليبهم، وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم، ومن البيّن أن ذلك الرأى لايمكن تعقله إلا اذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول، بعد تبليغ الدعوة الالهية بتنفيذها على وجه عملى، أى أن الرسول يكون مبلغاً ومنفذا معا.

(١١) غير أن الذين بحثوا فى معنى الرسالة، ووقفنا على مباحثهم، أغفلوا دائما أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة، الا ابن خلدون، فقد جاء فى كلامه مايشير إلى أن الاسلام دون غيره من الملل الأخرى قد اختص بأنه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل، وذلك المعنى ظاهر فى عدة مواضع من مقدمته التاريخية، وقد بينه بنوع من البيان فى الفصل الذى شرح فيه اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية، واسم الكوهن عند اليهود، فقال :

«إعلم أن الملة لابد لها من قائم عند غيبة النبى، يحملهم على أحكامها وشرائعها، ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاء به من التكاليف. والنوع الانسانى أيضاً، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى، لابد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم، ويزعهم عن مفاسدهم، بالقهر، وهو المسمى بالملك، والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا، لعموم الدعوة، وحمل الكافة على دين الإسلام طوعا أو كرهاً، اتحدت فيها الخلافة والملك، لتوجه الشوكة من

القائمين بها اليهما معا، وأما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة، ولا الجهاد عندهم مشروعا، الا فى المدافعة فقط، فصار القائم بأمر الدين فيها لايعنيه شئ من سياسة الملك، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم الأخرى وانما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصة أنفسهم إلخ».

فهو كما ترى يقول، أن الاسلام شرع تبليغى وتطبيقى، وأن السلطة الدينية اجتمعت فيه والسلطة السياسة، دون سائر الاديان.

(١٢) لانرى لذلك القول دعامة، ولانجد له سنداً، وهو على ذلك ينافى معنى الرسالة، ولايتلاءم مع ما تقضى به طبيعة الدعوة الدينية كما عرفت، وليكن ذلك القول صحيحاً، فقد بقى مشكل آخر عليهم أن يجدوا له جوابا، وأن يلتمسوا منه مخرجا، ذلك هو المشكل الذى بدأنا عنده هذا البحث فدفعنا إلى بحث آخر.

اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس دولة سياسية، أو شرع فى تأسيسها، فلماذا خلت دولته إذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم؟ ولماذا لم يعرف نظامه فى تعيين القضاة والولاة؟ ولماذا لم يتحدث إلى رعيته فى نظام الملك وفى قواعد الشورى؟ ولماذا ترك العلماء فى حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومى فى زمنه؟ ولماذا ولماذا! نريد أن نعرف منشأ ذلك الذى يبدو للناظر كأنه ابهام أو

اضطراب أو نقص، أو ماشئت فسمه، فى بناء الحكومة أيام النبى صلى الله عليه وسلم، وكيف كان ذلك؟ وما سره؟

لعل أولئك الذين يصرون على اعتقادهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قام بدعوة إلى دين جديد، وإلى تأسيس دولة جديدة، ويصرون على أن الدولة التى أنشأها النبى صلى الله عليه وسلم كانت توضع أسسها، وتدار شئونها، وتنظم أمورها، بوحى الله تعالى أحكم الحاكمين، ثم يضطرهم ذلك إلى أن نظام الدولة من النبى صلى الله عليه وسلم، بلغ غاية الكمال التى تعجز عنها عقول البشر، وترتد دونها أفكارهم، لعل أولئك اذا سئلوا عن سر هذا الذى يبدو نقصا فى أنظمة الحكم، وابهاما فى قواعده، قد يلتمسون للجواب إحدى تلك الخطط التى سنأخذ الآن فى بيانها.

(١٣) أما صاحب كتاب تخريج الدلائل السمعية – ويوافقه رفاعة بك – فقد وجد له من ذلك المأزق مخلصا سهلا، فزعم أن الحكومة كانت تشتمل فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم على كل ما يلزم للدولة من عمال وأعمال، وأنظمة مضبوطة، وقواعد محدودة، وسنن مفصلة تفصيلا، لا مجال بعده لجديد، ولا زيادة لمستزيد، وعسى أن لا يكون بك حاجة إلى إعادة هذا القول عليك بعد ما سبق.

(١٤) قد يقول قائل يريد أن يؤيد ذلك المذهب بنوع من التأييد، على طريقة أخرى: أنه لاشئ يمنعنا من أن نعتقد أن نظام الدولة زمن

النبى صلى الله عليه وسلم كان متينا ومحكما، وكان مشتملا على جميع أوجــه الكمــال، التى تلزم لدولة يدبرها رســول من الله، يؤيده الوحى وتؤازره مـلائكة الله، غـيـر أننا لم نصل إلى علم التـفـاصـيل الحقيقية، ودقائق ماكانت عليه الحكومة النبوية، من نظام بالغ، وإحكام سابغ، لان الرواة قد تركوا نقل ذلك الينا، أو أنهم نقلوه، ولكن غاب علمه عنا، أو لسبب آخر، (٩٤) «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

(١٥) تلك خطة لاينبغى أن يرفضها لأول وهلة عقل العلماء. فانه لا حرج على نفوسنا أن يخالطها الشك فى أننا نجهل كثيراً من شئون التاريخ النبوى، بل الواقع أننا نجهل منه ومن غيره أكثر مما نعرف على أهل العلم أن يؤمنوا دائماً بأن كثيراً من الحقائق محجوب عنهم، وعليهم أن يدأبوا أبدا فى كشف مغيبها، واستنباط الجديد منها، ففى ذلك حياة العلم ونماؤه، غير أن احتمال جهلنا ببعض الحقائق لاينبغى عليها الاحكام، ونقيم المذاهب، ونبين لها الأسباب، ونستخلص منها النتائج، حتى يظهر لنا ما يخالفها ويثبت ثبوتاً علمياً.

لذلك نقول أنه من المحتمل حقيقة أن يكون نظام الحكومة النبوية قد خفى علينا خبره، وقد تكشف لنا الايام أنه كان المثل الأعلى فى الحكم، ولكن ذلك الاحتمال لايمنعنا أن نعود – ولما ينكشف لنا بالفعل ما يخالف معلومنا – فنسأل من جديد عن منشأ ذلك الذى عرفنا إلى

الآن من الابهام والاضطراب فى نظام الحكومة النبوية، وعن سره ومعناه .

(١٦) هنالك خطة أخرى للجواب عن ذلك السؤال ذلك أن كثيراً مما نسميه اليوم أركان الحكومة، وأنظمة الدولة، وأساس الحكم، إنما هى اصطلاحات عارضة، وأوضاع مصنوعة، وليست هى فى الواقع ضرورية لنظام دولة تريد أن تكون دولة البساطة، وحكومة الفطرة، التى ترفض كل تكلف، وكل ما لاحاجة بالفطرة البسيطة اليه وكل ما يمكن ملاحظته على الدولة النبوية يرجع عند التأمل إلى معنى واحد، ذلك هو خلوها من تلك المظاهر التى صارت اليوم عند علماء السياسة من أركان الحكومة المدنية، وهى فى حقيقة الأمر غير واجبة، ولايكون الاخلال بها حتما نقصاً فى الحكم، ولامظهراً من مظاهر الفوضى والاختلال، فذلك تأويل مايلاحظ على الدولة النبوية مما قد يعد اضطراباً.

(١٧) كان محمد صلى الله عليه وسلم يحب البساطة، ويكره التكلف، وعلى البساطة الخالصة التى لا شائبة فيها قامت حياته الخاصة والعامة، كان يدعو إلى البساطة فى القول والعمل، كما فى حديثه مع جرير بن عبدالله البجلى (٩٥) «يا جرير إذا قلت فأوجز، واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف».

كان يعاشر الناس من غير تكلف، ويجرى معهم على منهج البساطة،

وقـد «روى (٩٦) أنه صلى الله عليه وسلم كان يمازح أصحابه... وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كانت فى النبى صلى الله عليه وسلم دعابة» وكان يقول لاصحابه «(٩٧) إنى أكره أن أتميز عليكم، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه» وروى أنه صلى الله عليه وسلم (٩٨) «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» وفى حديثه لأبى موسى الاشعرى ومعاذ، وسبقت روايته «يسرا ولاتعسرا، وبشرا ولا تنفرا».

كان صلى الله عليه وسلم يكره الرياء والتكلف، ويقول فى حجة الوداع (٩٩) «اللهم اجعله حجاً مبروراً، لارياء فيه ولاسمعة» وقال الله تعالى مخاطباً له عليه السلام (١٠٠) «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين» وكان فيما يبلغ عن شريعة الله تعالى يأمر الناس بالقواعد البسيطة، وينهاهم عن التكلف، ويناديهم «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم» «وان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» (١٠١) «وما جعل عليكم فى الدين من حرج».

ولاتجد فيما جاء به من الشرائع حكما يرجع إلا إلى المبادئ الامية الساذجة. فلم يكلفهم فى أوقات الصلاة أن يحسبوا درج الشمس، ولا مطالع النجوم، بل جعل مناط ذلك مايحس به كل انسان من حركة الشمس المشاهدة فى السماء، وجعل الصوم والحج ومناسك العبادة

متصلة بحركة القمر، وحركة القمر محسوسة لاتحتاج إلى حساب ولارصد، ولم يكلفنا فى الصوم أن نحسب لهلال رمضان، بل جعل ذلك منوطاً برؤية الهلال رؤية بسيطة لاتكلف فيها، وجاء فى ذلك الحديث (١٠٢) «نحن أمة أمية الخ» وحديث (١٠٣) صوموا لرؤيته الخ، ولم يكلفنا حساب اليوم بالساعات والدقائق، بل ربطه كذلك بالشئ المحسوس، الذى لإخفاء فيه «وكلوا (١٠٤) واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل».

كان صلى الله عليه وسلم أمياً ورسولاً إلى الاميين، فما كان يخرج فى شئ من حياته الخاصة والعامة ولا فى شريعته عن أصول الأمية، ولا عن مقتضيات السذاجة والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، فلعل ذلك الذى رأينا فى نظام الحكم أيام النبى صلى الله عليه وسلم هو النظام الذى تقضى به البساطة الفطرية . ولاريب فى أن كثيراً من نظم الحكم فى الوقت الحاضر إنما هى أوضاع وتكلفات، وزخارف طال بنا عهدها فألفناها، حتى تخيلناها من أركان الحكم وأصول النظام، وهى إذا تأملت ليست من ذلك فى شئ، إن هذا الذى يبدو لنا إبهاما أو اضطراباً أو نقصاً فى نظام الحكومة النبوية لم يكن إلا البساطة بعينها، والفطرة التى لاعيب فيها.

(١٨) لو كنا نريد أن نختار لنا طريقا من بين تلك الطرق التى قصصنا عليك، لكان ذلك الرأى أدنى الى اختيارنا، فانه بالدين أشبه لكنا لا نستطيع أن نتخذه لنا رأيا، لأنك إن تأملت وجدته غير وجيه ولا صحيح .

حق أن كثيراً من أنظمة الحكومات الحديثة أوضاع وتكلفات، وان فيها ما لا يدعو اليه طبع سليم، ولا ترضاه فطرة صحيحة، ولكن من الاكيد الذى لايقبل شكا أيضا أن فى كثير مما استحدث فى أنظمة الحكم ماليس متكلفا ولا مصنوعاً، ولا هو مما ينافى الذوق الفطرى البسيط، وهو مع ذلك ضرورى ونافع، ولاينبغى لحكومة ذات مدنية وعمران أن تهمل الأخذ به.

وهل من سلامة الفطرة وبساطة الطبع مثلا أن لا يكون لدولة من الدول ميزانية تقيد إيرادها ومصروفاتها، أو أن لايكون لها دواوين تضبط مختلف شئونها الداخلية والخارجية، إلى غير ذلك- وأنه لكثير - مما لم يوجد منه شئ فى أيام النبوة، ولا أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم . إنه ليكون تعسفاً غير مقبول أن يعلل ذلك الذى يبدو من نقص المظاهر الحكومية زمن النبى صلى الله عليه وسلم بأن منشأه سلامة الفطرة، ومجانبة التكلف.

فنلتمس وجهاً آخر لحل ذلك الاشكال.

الباب الثالث

رسالة لا حكم، ودين لا دولة

كان ﷺ رسولا غير ملك - زعامة الرسالة وزعامة الملك - كمال الرسل - كماله صلي الله عليه وسلم الخاص به - تحديد المراد بكلمات ملك وحكومة الخ - القرآن ينفي أنه (ﷺ) كان حاكما- السنة كذلك - طبيعة الاسلام تأبى ذلك أيضاً - تأويل بعض ما يشبه أن يكون مظهراً من مظاهر الدولة - خاتمة البحث.

★★★

(١) رأيت إذن أن هنالك عقبات لايسهل أن يتخطاها أولئك الذين يريدون أن يذهب بهم الرأى إلى اعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع إلى صفة الرسالة أنه كان ملكا سياسياً، ومؤسساً لدولة سياسية. رأيت أنهم كلما حاولوا أن يقوموا من عثرة لقيتهم عثرات، وكلما أرادوا الخلاص من ذلك المشكل عاد ذلك المشكل عليهم جذعاً.

لم يبق أمامك بعد الذى سبق إلا مذهب واحد، وعسى أن تجده منهجاً واضحاً، لاتخشى فيه عثرات، ولا تلقى عقبات، ولا تضل بك

شعابه، ولايغمرك ترابه، مأمون الغوائل، خالياً من المشاكل . ذلك هو القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لاتشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة، وانه لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم ملك ولاحكومة، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً الى ملك .

قول غير معروف ، وربما استكرهه سمع المسلم ، بيد أن له حظا كبيراً من النظر وقوة الدليل .

(٢) وقبل أن نأخذ بك فى بيان ذلك ، يجب أن نحذرك من خطأ قد يتعرض له الناظر اذا هو لم يحسن النظر ، ولم يكن من أمره على حذر، ذلك أن الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من الزعامة فى قومه ، والسلطان عليهم ، ولكن ذلك ليس فى شىء من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم . فلا تخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك ، ولاحظ أن بينهما خلافا يوشك أن يكون تباينا .

وقد رأيت أن زعامة موسى وعيسى فى اتباعهما لم تكن زعامة ملوكية ، ولا كانت كذلك زعامة أكثر المرسلين .

(٣) إن طبيعة الدعوة الدينية الصادقة تستلزم لصاحبها نوعا من الكمال الحسى أولا ، فلا يكون فى تركيب جسمه ولا فى حواسه ومشاعره نقص ، ولا شىء يدعو الى النفور . ولابد له – لانه زعيم – من

هيبة تملأ النفوس من خشيته ، وجاذبية تعطف الرجال والنساء الى محبته . ثم لابد له أيضا من الكمال الروحى ، لذلك ، ولما يفيض عليه ، ضرورة اتصاله بالملأ الاعلى .

والرسالة تستلزم لصاحبها شيئا كثيراً من التميز الاجتماعى بين قومه كما ورد : (١٠٥) أنه لا يبعث الله نبياً الا فى عز من قومه ، ومنعة من عشيرته .

والرسالة تستلزم لصاحبها نوعا من القوة التى تعده لان يكون نافذ القول ، مجاب الدعوة ، فان الله جل شأنه لا يتخذ الرسالة عبثا ، ولا يبعث بالحق رسولا الا وقد أراد لدعوته أن تتم ، وان ترسخ أصولها فى لوح العالم المحفوظ ، وان تمتزج بحقائق هذا العالم امتزاجا «(١٠٦) وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» وحاشا لله ، لا يرسل الله دعوة الحق لتضيع ، ولا يبعث رسولا من عنده ليرتد مخزياً «(١٠٧) ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين»(١٠٨) «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (١٠٩) ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون» «(١١٠) انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» .

إن مقام الرسالة يقتضى لصاحبه سلطاناً أوسع مما يكون بين الحاكم والمحكومين ، بل وأوسع مما يكون بين الاب وأبنائه .

قد يتناول الرسول من سياسة الأمة مثل ما يتناوله الملوك ، ولكن للرسول وحده وظيفة لا شريك له فيها . من وظيفته أيضاً أن يتصل بالارواح التى فى الاجساد ، وينزع الحجب ليطلع على القلوب التى فى الصدور . له بل عليه أن يشق عن قلوب اتباعه ، ليصل الى مجامع الحب والضغينة، ومنابت الحسنة والسيئة . ومجارى الخواطر ، ومكامن الوساوس ، ومنابع النيات ، ومستودع الأخلاق . له عمل ظاهر فى سياسة العامة ، وله أيضا عمل خفى فى تدبير الصلة التى تجمع بين الشريك والشريك ، والحليف والحليف ، والمولى وعبده ، والوالد وولده ، وفى تدبير تلك الروابط التى لا يطلع عليها الا الحليل وحليلته . له رعاية الظاهر والباطن ، وتدبير أمور الجسم والروح ، وعلاقاتنا الارضية والسماوية . له سياسة الدنيا والآخرة .

الرسالة تقتضى لصاحبها ، وهى كما ترى ، وفوق ما ترى ، حق الاتصال بكل نفس اتصال رعاية وتدبير ، وحق التصريف لكل قلب تصريفاً غير محدود .

(٤) فذلك ، ولاحظ أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اختصت رسالته بكثير مما لم يكن لغيره من المرسلين ، فقد جاء صلى الله عليه

وسلم بدعوة اختاره الله تعالى لان يدعو اليها الناس كلهم أجمعين ، وقدر له أن يبلغها كاملة ، وأن يقوم عليها حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . تلك رسالة توجب لصاحبها من الكمال أقصى ما تسمو اليه الطبيعة البشرية ، ومن القوة النفسية منتهى ما قدر الله لرسله المصطفين الاخيار ، ومن تأييد الله ما يتناسب مع تلك الدعوة الكبيرة العامة .

فذلك قوله تعالى « (١١١) وكان فضل الله عليك عظيماً » وقوله تعالى « (١١٢) فانك بأعيننا » وفي الحديث « (١١٣) والله لا يخزيك الله أبدا » « (١١٤) أنا اكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » .

من أجل ذلك كان سلطان النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً ، وأمره فى المسلمين مطاعاً ، وحكمه شاملا ، فلا شىء مما تمتد اليه يد الحكم الا وقد شمله سلطان النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان الا وهو داخل تحت ولاية النبى صلى الله عليه وسلم على المؤمنين .

واذا كان العقل يجوز أن تتفاوت درجات السلطان الذى يكون لرسول على أمته ، فقد رأيت أن محمداً صلى الله عليه وسلم أحق الرسل عليهم السلام بأن يكون له على أمته أقصى ما يمكن من

السلطان ونفوذ القول . قوة النبوة ، وسلطان الرسالة، ونفوذ الدعوة الصادقة قدر الله تعالى أن تعلو على دعوة الباطل، وأن تمكث فى الارض .

ذلك سلطان ترسله السماء من عند الله تعالى على من تنزل عليه ملائكة السماء بوحي الله تعالى . تلك قوة قدسية يختص بها عباد الله المرسلون ، ليست فى شيء من معنى الملوكية ، ولا تشابهها قوة الملوك ، ولا يدانيها سلطان السلاطين .

تلك زعامة الدعوة الصادقة الى الله وابلاغ رسالته ، لا زعامة الملك انها رسالة ودين ، وحكم النبوة لا حكم السلاطين .

ونعود ثانياً فنحذرك من أن تخلط بين الحكمين ، وان يلتبس عليك أمر الولايتين ، ولاية الرسول من حيث هو رسول ، وولاية الملوك والامراء.

ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها ايمان القلب ، وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية مادية ، تعتمد اخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال . تلك ولاية هداية الى الله وارشاد اليه ، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمار الأرض . تلك للدين ، وهذه للدنيا ، تلك لله ، وهذه

للناس . تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية ، ويا بعد ما بين السياسة والدين .

(٥) نريد بعد ذلك أن نلفتك الى شيء آخر ، فان ثمت كلمات تستعمل أحياناً استعمال المترادفات ، وتستعمل أحياناً استعمال المتغايرات ، وينشأ عن ذلك في بعض الأحوال مشاحة واختلاف في النظر ، واضطراب في الحكم . فمن ذلك كلمات ، ملك ، وسلطان ، وحاكم ، وأمير ، وخليفة ، ودولة ، ومملكة ، وحكومة ، وخلافة ، الخ .

ونحن هنا اذا سألنا هل كان النبي صلى الله عليه وسلم ملكا أم لا، فاننا نريد أن نسأل ، هل كان له صلى الله عليه وسلم صفة غير صفة الرسالة ، بها يصح أن يقال انه أسس فعلا ، أو شرع في تأسيس وحدة سياسية أم لا فالملك في استعمالنا هنا ، ولا حرج إن سميته خليفة أو سلطاناً أو أميراً ، أو ماشئت فسمه ، معناه الحاكم على أمة ذات وحدة سياسية ومدنية ، ونريد بالحكومة والدولة والسلطنة والمملكة ما يريد علماء السياسة بكلمات .

kingdom أو state أو government أو ما أشبه ذلك .

نحن لا نشك في أن الاسلام وحدة دينية ، والمسلمين من حيث هم ، جماعة واحدة ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الى تلك الوحدة ، واتمها بالفعل قبل وفاته ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان على رأس هذه

الوحدة الدينية ، إمامها الأوحد ، ومدبرها الفذ ، وسيدها الذى لا يراجع له أمر ، ولا يخالف له قول. وفى سبيل هذه الوحدة الاسلامية ناضل عليه السلام بلسانه وسنانه ، وجاءه نصر الله والفتح ، وأيدته ملائكة الله وقوته ، حتى بلغ رسالته ، وأدى أمانته . وكان له صلى الله عليه وسلم من السلطان على امته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده « (١١٥) النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» « (١١٦) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً».

من كان يريد أن يسمى تلك الوحدة الدينية دولة ، ويدعو سلطان النبى صلى الله عليه وسلم ذلك السلطان النبوى المطلق ، ملكا أو خلافة، والنبى عليه السلام ملكا أو خليفة أو سلطاناً الخ فهو فى حل من أن يفعل ، فان هى الا أسماء ، لا ينبغي الوقوف عندها ، وانما المهم كما قلنا هو المعنى ، وقد حددناه لك تحديداً .

المهم هو أن نعرف هل كانت زعامة النبى صلى الله عليه وسلم فى قومه زعامة رسالة ، أم زعامة ملك ؟ وهل كانت مظاهر الولاية التى نراها أحياناً فى سيرة النبى عليه السلام مظاهر دولة سياسية ، أم مظاهر رياسة دينية ؟ وهل كانت تلك الوحدة التى قام على رأسها النبى عليه السلام وحدة حكومة ودولة ، أم وحدة دينية صرفة لا

سياسية ؟ وأخيراً هل كان صلى الله عليه وسلم رسولا فقط أم كان ملكا ورسولا ؟.

(٦) ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان .

«من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » (١١٧) «وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل ، لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون» (١١٨) «إتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ، ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل» (١١٩).

«ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (١٢٠) « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل» (١٢١) «وما أرسلناك عليهم وكيلا» (١٢٢).

«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا» (١٢٣).

«إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل » (١٢٤) «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ» (١٢٥) «نحن أعلم بما

يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» (١٢٦) «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر» (١٢٧).

القرآن كما ترى يمنع صريحاً أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم، حفيظاً على الناس، ولا وكيلا، ولاجباراً (١٢٨)، ولا مسيطرا، وان يكون له حق اكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين: ومن لم يكن حفيظا ولا مسيطرا فليس بملك، لأن من لوازم الملك السيطرة العامة والجبروت سلطاناً غير محدود.

ومن لم يكن وكيلا على الأمة فليس بملك أيضاً.

وقال تعالى « (١٢٩) ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً».

القرآن صريح فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة. ولو كان صلى الله عليه وسلم ملكا لكان له على أمته حق الملك أيضاً. وأن للملك حقاً غير حق الرسالة، وفضلا غير فضلها، وأثراً غير أثرها «قل لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا إلا ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون» (١٣٠) «فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضاق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء

معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل» (١٣١) «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (١٣٢) «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً»(١٣٣) «قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين» (١٣٤) «أن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين» (١٣٥).

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد» (١٣٦).

القرآن كما رأيت صريح فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، ثم هو بعد ذلك صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس ، وانه لم يكلف شيئاً غير ذلك البلاغ ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه «فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين» (١٣٧) «ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» (١٣٨) « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين» (١٣٩) «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم» (١٤٠).

«وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» «فهل على الرسول إلا البلاغ المبين» (١٤١) «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم

يؤمنون» (١٤٢) «فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (١٤٢) «وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً» (١٤٣) «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً» (١٤٤) «طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى» (١٤٥) «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» (١٤٦) «وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً» (١٤٧) «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين» (١٤٨) «وإن يكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين» (١٤٩).

«ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» (١٥٠) «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (١٥١) «ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» (١٥٢) «إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (١٥٣) «وما علينا إلا البلاغ المبين» (١٥٤) «قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار» (١٥٥) «قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع الا ما يوحى إلىّ ، وما أنا الا نذير مبين» (١٥٦).

«أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً» (١٥٧) «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » (١٥٨) «قل إنماالعلم عند الله وأنما أنا نذير مبين» (١٥٩) «قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغاً من الله ورسالاته »(١٦٠).

٧- اذا نحن تجاوزنا كتاب الله تعالى الى سنة النبى عليه الصلاة والسلام ، وجدنا الأمر فيها أصرح ، والحجة أقطع.

روى صاحب السيرة (١٦١) النبوية ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، لحاجة يذكرها ، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هون عليك فانى لست بملك ولا جبار ، وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة ... وقد جاء فى الحديث انه لما خير على لسان اسرافيل بين أن يكون نبياً ملكا ، او نبياً عبداً ، نظر عليه الصلاة والسلام الى جبريل ، عليه السلام ، كالمستشير له ، فنظر جبريل الى الارض ، يشير الى التواضع ، وفى رواية فاشار الى جبريل أن تواضع ، فقلت نبياً عبدا . اهـ

فذلك صريح أيضا فى انه صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكا ، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه عليه السلام إليه .

التمس بين دفتي المصحف الكريم أثراً ظاهراً أو خفياً لما يريدون أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الاسلامى ، ثم التمس ذلك الأمر مبلغ جـهـدك بين أحـاديث النبى صلى الله عليـه وسلم . تلك منابع الدين الصافية متناول يديك ، وعلى كثب منك ، فالتمس فيـهـا دليلا أو شبـه دليل، فانك لن تجد عليها برهاناً ، الا ظنا ، وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا.

(٨) الاسـلام دعـوة دينيـة الى الله تعـالى ، ومـذهـب من مـذاهب الاصلاح لهذا النوع البشرى وهدايته الى ما يدنيه من الله جل شأنه ، ويفتح له سبيل السعادة الابدية التى أعدها الله لعباده الصالحين . هو وحدة دينية أراد الله جل شأنه أن يربط بها البشر أجمعين ، وأن يحيط بها أقطار الارض كلها .

تلك دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم ، أحمره وأسوده ، أن يعتصموا بحـبل الله الواحـد ، وأن يكونوا أمـة واحـدة ، يعـبـدون إلهـا واحـداً ، ويكونون فى عـبـادته إخـوانا . تلك دعـوة الى المثل الاعلى لسـلام هذا العالم، وأخذه الى ما يليق به من الكمال ، والى ما أعد له من السعادة، تلك رحمة السماء بالارض ، وفضل الله على العالمين .

دعوة العالم كله الى التآخى فى الدين دعوة معقولة ، وفى طبيعة البشر استعداد لتحقيقها .

بلى . ولقد وعد الله جل شأنه لهذه الدعوة أن تتم ، ولا تحسبن الله

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (١٦٢) «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا» (١٦٣) «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وهو يدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (١٦٤) .

معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد ، وأن ينتظم البشرية كلها وحدة دينية ، فأما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة فذلك مما يوشك أن يكون خارجاً عن طبيعة البشرية ، ولا تتعلق به إرادة الله .

على أن ذلك انما هو غرض من الاغراض الدنيوية ، التى خلى الله سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا . وترك الناس أحراراً فى تدبيرها على ما تهديهم إليه عقولهم ، وعلومهم ، ومصالحهم ، وأهواؤهم ، ونُزعاتهم ، حكمة لله فى ذلك بالغة ليبقى الناس مختلفين ، «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» (١٦٥) .

وليبقى بين الناس ذلك التدافع الذى أراده الله ليتم العمران «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» (١٦٦) .

وحتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم أمر الله

ذلك من الاغراض الدنيوية التى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون له فيها حكم أو تدبير ، فقال عليه السلام أنتم أعلم بشئون دنياكم.

ذلك من أغراض الدنيا ، والدنيا من أولها لآخرها ، وجميع ما فيها من أغراض وغايات ، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من أسماء ومسميات ، هى أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها .

(٩) لا يريبنك هذا الذى ترى أحياناً فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، فيبدو لك كأنه عمل حكومى ، ومظهر للملك والدولة ، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك ، بل هو لم يكن الا وسيلة من الوسائل التى كان عليه صلى الله عليه وسلم أن يلجأ اليها ، تثبيتا للدين ، وتأييداً للدعوة.

وليس عجيباً أن يكون الجهاد وسيلة من تلكم الوسائل . هو وسيلة

عنيفة وقاسية ، ولكن ما يدريك ، فلعل الشر ضرورى للخير فى بعض الاحيان ، وربما وجب التخريب ليتم العمران .

«قالوا كان لا يخلو من غلب «بالتحريك» ، قلنا تلك سنة الله فى الخلق، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله بقضائه فيه .

اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ، ليحيى ميتها ، وينقع من غلتها، وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به» (١٦٧).

قالوا غزوت ! ورسل الله ما بعثت — لقتل نفس ولا جاءت لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسفة — فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب — تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به — ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
علمتهم كل شيء يجهلون به — حتى القتال وما فيه من الذمم(١٦٨)

(١٠) ترى من هذا انه ليس القرآن هو وحده الذى يمنعنا من اعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو مع رسالته الدينية الى دولة سياسية . وليست السنة هى وحدها التى تمنعنا من ذلك ، ولكن مع الكتاب والسنة حكم العقل وما يقضى به معنى الرسالة وطبيعتها .

انما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم .

هيهات هيهات ، لم يكن ثمت حكومة ، ولا دولة ، ولا شىء من نزعات السياسة ، ولا اغراض الملوك والامراء .

لعلك الآن قد اهتديت إلى ما كنت تسأل عنه قبلا ، من خلو العصر النبوى من مظاهر الحكم واغراض الدولة ، وعرفت كيف لم يكن هنالك ترتيب حكومى ، ولم يكن تمت ولاة ولا قضاة ولا ديوان الخ .

ولعل ظلام تلك الحيرة التى صادفتك قد استحال نوراً . وصارت النار عليك برداً وسلاما .

الكتاب الثالث

الخلافة والحكومة فى التاريخ

الباب الأول

الوحدة الدينية والعرب

ليس الاسلام ديناً خاصاً بالعرب - العربية والدين - اتحاد العرب الديني مع اختلافهم السياسي - أنظمة الاسلام دينية لا سياسية - ضعف التباين السياسي عند العرب أيام النبي - انتهاء الزعامة بموت الرسول عليه السلام - لم يسم النبي ﷺ خليفة من بعده - مذهب الشيعة في استخلاف علي - مذهب جماعة في استخلاف أبي بكر.

(١) الاسلام كما عرفت دعوة سامية ، أرسلها الله لخير هذا العالم كله ، شرقيه وغربيه ، عربيه وأعجميه ، رجاله ونسائه ، أغنيائه وفقرائه ، عالميه وجهلائه . هو وحدة دينية ، أراد الله أن يربط بها البشر ، وأن تشمل أقطار الأرض كلها ، وما كان الاسلام دعوة عربية ، ولا وحدة عربية ، ولا دينا عربيا ، وما كان الاسلام ليعرف فضلا لأمة على أمة ، ولا للغة على لغة ، ولا لقطر على قطر ، ولا لزمن على زمن ، ولا لجيل على جيل ، إلا بالتقوى . ذلك على رغم ما ترى ، من أن النبى عليه السلام كان عربيا ، وكان يحب العرب بالطبع ، ويثنى عليهم ، وكان كتاب الله عربيا مبينا.



(٢) كان لابد لدعوة الاسلام أن تخرج إلى هذا الوجود ، وأن تبرز حقيقة ثابتة بين حقائق هذا الكون ، وأن يحملها عن جانب القدس الأعلى رسول يختاره الله تعالى ، ليبلغها إلى الناس .

ولقد رضى الله جل شأنه ، وتعالى حكمه ، أن يختار رسوله لتلك الدعوة من بين القبائل العربية دون غيرها ، وأن يختاره فى العرب من بين ولد اسماعيل ، وأن يختاره من بين ولد اسماعيل فى كنانة، وأن يختاره فى كنانة من قريش ، وأن يختاره فى قريش من بنى هاشم ، وأن يختاره من بنى هاشم محمد بن عبدالله ﷺ .

لله جل شأنه حكمة فى ذلك بالغة ، قد نعرفها وقد لانعرفها.

«وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون»(١٦٩).

كتاب عربى ، ورسول عربى ، فلا مناص بالطبع من أن تبدأ دعوة الاسلام بين العرب ، قبل أن تصل إلى غيرهم ، ولا مناص بالطبع من أن يكون العرب أول من تشق آذانهم دعوة ذلك البشير النذير ، وأول من يهيب بهم ذلك الداعى إلى الله ، وأول من يحاول أن يجمعهم على الهدى.

وكذلك بدأ رسول الله ﷺ الدعوة بين عشيرته الأقربين ، ثم بين قومه العرب ، ومازال بهم ، يؤيده نصر الله ، حتى أتوا لدعوته

خاضعين. وكانوا تحت زعامة ذلك الرسول الأمين ، أول داخل فى وحدة الدين.

(٣) البلاد العربية ، كما تعرف، كانت تحوى أصنافاً من العرب مختلفة الشعوب والقبائل ، متباينة اللهجات ، متنائية الجهات ، وكانت مختلفة أيضاً فى الوحدات السياسية ، فمنها ما كان خاضعاً للدولة الرومية ومنها ما كان قائماً بذاته مستقلا.

كل ذلك يستتبع ، بالضرورة ، تبايناً كبيراً بين تلك الأمم العربية ، فى مناهج الحكم ، وأساليب الادارة ، وفى الآداب والعادات ، وفى كثير من مرافق الحياة الاقتصادية والمادية.

هذه الأمم المتنافرة قد اجتمعت كلها فى زمن النبى ﷺ ، حول دعوة الاسلام ، وتحت لوائه ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، تربطهم وشيجة واحدة من الدين ، ويضمهم سياج واحد ، من زعامة النبى ﷺ ، ومن عطفه ورحمته ، وصاروا أمة واحدة ، ذات زعيم واحد ، هو النبى عليه السلام.

تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه . ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تعدُ أبداً أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة. وحدة الايمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك.

(٤) يدلك على هذا سيرة النبى ﷺ ، فما عرفنا أنه تعرض لشىء من سياسة تلك الأمم الشتيتة ، ولا غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى ، ولا حاول أن يمس ما كان بين تلك الأمم بعضها مع بعض ، ولا ما كان بينها وبين غيرها ، من صلات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا سمعنا أنه عزل والياً ، ولا عين قاضياً ، ولا نظم فيهم عسساً ، ولا وضع قواعد لتجاراتهم ولا لزراعاتهم ولا لصناعاتهم . بل ترك لهم عليه السلام كل تلك الشئون، وقال لهم أنتم أعلم بها، فكانت كل أمة ومالها ، من وحدة مدنية وسياسية، وما فيها من فوضى أو نظام ، لايربطهم إلا ماقلنا لك ، من وحدة الاسلام وقواعده وآدابه.

ربما أمكن أن يقال ، أن تلك القواعد والآداب والشرائع ، التى جاء بها النبى عليه السلام ، للأمم العربية ولغير الأمم العربية أيضاً، كانت كثيرة ، وكان فيها مايمس إلى حد كبير أكثر مظاهر الحياة فى الأمم، فكان فيها بعض أنظمة للعقوبات ، وللجيش ، والجهاد ، وللبيع والمداينة والرهن، ولآداب الجلوس والمشى والحديث ، وكثير غير ذلك . فمن جمع العرب على تلك القواعد الكثيرة ، ووحد بين مرافقهم وآدابهم وشرائعهم إلى ذلك الحد الواسع الذى جاء به الاسلام، فقد وحد أنظمتهم المدنية، وجعلهم بالضرورة وحدة سياسية، فقد كانوا إذن دولة واحدة، وكان النبى عليه السلام زعيمها وحاكمها.

ولكنك إذا تأملت، وجدت أن كل ماشرعه الاسلام ، وأخذ به النبى المسلمين ، من أنظمة وقواعد وآداب ، لم يكن فى شىء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد إذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءاً يسيراً مما يلزم لدولة مدنية من أصول سياسية وقوانين.

إن كل ما جاء به الاسلام من عقائد ومعاملات ، وآداب وعقوبات ، فانما هو شرع دينى خالص لله تعالى ، ولمصلحة البشر الدينية لاغير. وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا ، فذلك مالا ينظر الشرع السماوى اليه ، ولا ينظر اليه الرسول .

والعرب وإن جمعتهم شريعة الاسلام لم يزالوا يومئذ على ماعرفت من تباين فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية ، ويساوى ذلك أن تقول ، انهم كانوا دولا شتى، على قدر ماتسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة.

تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى . وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا . ذلك الحق لاريب فيه.

قد نخاف أن يخفى عليك أمر ذلك التباين ، الذى نقول أنه كان بين أمم العرب زمن النبى عليه السلام ، وأن تخدعك تلك الصورة المنسجمة

التى يحاول المؤرخون أن يضعوها لذلك العصر . فاعلم أولا : أن فى فن التاريخ خطأ كثيراً ، وكم يخطىء التاريخ وكم يكون ضلالا كبيراً.

واعلم ثانياً : أنه فى الحق أن كثيراً من تنافر العرب وتباينهم قد تلاشت آثاره ، بما ربط الاسلام بين قلوبهم ، وما جمعهم عليه من دين واحد ، ومن أنظمة وآداب مشتركة ، واذكر ، ثالثاً : ما أسلفنا لك الاشارة اليه ، من أثر الزعامة الدينية التى كانت للرسول عليه السلام. فلا عجب إذن أن يكون تباين الأمم العربية قد وهت آثاره ، وخفيت مظاهره ، وخفت حدته ، وذهبت شدته . «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنت أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها»(١٧٠).

ولكن العرب على ذلك ما برحوا أمماً متباينة ، ودولا شتى . كان ذلك طبيعيا ، وما كان طبيعيا فقد يمكن أن نخفف حدته ، وتقلل آثاره، ولكن لايمكن التخلص منه بوجه من الوجوه .

لم يكد عليه السلام يلحق بالرفيق الأعلى حتى أخذت تبدو جلية واضحة أسباب ذلك التباين بين أمم العرب ، وعادت كل أمة منهم تشعر بشخصيتها المتميزة ، ووجودها المستقل عن غيرها ، وأوشكت أن تنتقض تلك الوحدة العربية ، التى تمت فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، «وارتد أكثر العرب ، إلا أهل المدينة ومكة والطائف ، فانه لم يدخلها ردة(١٧١)».

(٦) كانت وحدة العرب كما عرفت وحدة اسلامية لا سياسية ، وكانت زعامة الرسول فيهم زعامة دينية لا مدنية ، وكان خضوعهم له خضوع عقيدة وايمان ، لا خضوع حكومة وسلطان ، وكان اجتماعهم حوله اجتماعاً خالصاً لله تعالى ، يتلقون فيه خطرات الوحى، ونفحات السماء، وأوامر الله تعالى ونواهيه «ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة».

تلك زعامة كانت لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، ليست لشخصيته ولا لنسبه ولكن لأنه رسول الله «وما ينطق عن الهوى»(١٧٢) بل عن الله تعالى وبواسطة ملائكته المكرمين . فإذا ما لحق عليه السلام بالملأ الأعلى لم يكن لأحد أن يقوم من بعده ذلك المقام الدينى ، لأنه كان عليه السلام «خاتم النبيين»(١٧٣) وما كانت رسالة الله تعالى لتورث عن الرسول ، ولا لتؤخذ منه عطاء ولا توكيلا.

(٧) وقد لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى من غير أن يسمى أحداً يخلفه من بعده ، ولا أن يشير إلى من يقوم فى أمته مقامه.

بل لم يشر عليه السلام طول حياته إلى شىء يسمى دولة اسلامية، أو دولة عربية.

وحاشا لله ، ما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أدى عن الله تعالى رسالته كاملة ، وبين لأمته قواعد الدين كله ، لا لبس فيها ولا ابهام . فكيف - إذا كان من عمله أن ينشىء دولة - يترك أمر

تلك الدولة مبهما على المسلمين ، ليرجعوا سريعاً من بعده حيارى يضرب بعضهم رقاب بعض! وكيف لا يتعرض لأمر من يقوم بالدولة من بعده . وذلك أول ما ينبغي أن يتعرض له بناة الدول قديماً وحديثاً ! كيف لايترك للمسلمين ما يهديهم فى ذلك ! وكيف يتركهم عرضة لتلك الحياة القاتمة السوداء التى غشيتهم وكادوا فى غسقها يتناحرون ، وجسد النبى بينهم لما يتم تجهيزه ودفنه!.

(٨) وأعلم أن الشيعة جميعاً متفقون على أن رسول الله ﷺ قد عين عليا رضى الله تعالى عنه للخلافة على المسلمين من بعده . ولا نريد أن نقف بك عند مناقشة ذلك الرأى، فان حظه من النظر العلمى قليل لاينبغى أن يلتفت اليه .

قال ابن خلدون أن النصوص التى «ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لايعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيداً عن تأولاتهم الفاسدة» (١٧٤).

(٩) وقد ذهب الامام ابن حزم الظاهرى إلى رأى طائفة قالت أن رسول الله تعالى نص على استخلاف أبى بكر بعده على أمور الناس نصاً جلياً ، لاجماع المهاجرين والانصار على أن سموه خليفة رسول الله ﷺ ، ومعنى الخليفة فى اللغة هو الذى يستخلفه ، لا الذى يخلفه دون أن يستخلفه هو ، ولا يجوز غير هذا البتة فى اللغة بلا خلاف الخ (١٧٥) وقد أطال فى ذلك.

والذهاب مع هذا الرأى تعسف لا نرى له وجهاً صحيحاً . ولقد راجعنا ماتيسر لنا من كتب اللغة فما وجدنا فيه مايقصد كلام الامام ابن حزم ، ثم وجدنا اجماع الرواة على اختلاف الصحابة فى بيعة أبى بكر، وامتناع أجلة منهم عنها ، وقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه معتذراً عما قاله(١٧٦) يوم قبض الرسول ﷺ «أيهاالناس إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى ، وما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهدا عهده إلىّ رسول الله ﷺ ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا. وان الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوا»(١٧٧).

وجدنا ذلك ووجدنا كثيراً غيره فعلمنا أن الذهاب إلى أن النبى ﷺ قد بين أمر الخلافة من بعده رأى غير وجيه ، بل الحق أنه ﷺ ماتعرض لشيء من أمر الحكومة بعده ولا جاء للمسلمين فيها بشرع يرجعون إليه.

وما لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى إلا من بعد ما كمل الدين، وتمت النعمة ورسخت فى حقيقة الوجود دعوة الاسلام، ويومئذ مات عليه الصلاة والسلام ، وانتهت رسالته ، وانقطعت تلك الصلة الخاصة التى كانت بين السماء والأرض فى شخصه الكريم عليه السلام.

الباب الثانى
الدولة العربية

الزعامة بعد النبى عليه السلام انما تكون زعامة سياسية - أثر الاسلام فى العرب - نشأة الدولة العربية - اختلاف العرب فى البيعة - :

★★★

(١) زعامة النبى عليه السلام كانت ، كما قلنا، زعامة دينية ، جاءت عن طريق الرسالة لاغير . وقد انتهت الرسالة بموته ﷺ فانتهت الزعامة أيضاً ، وما كان لأحد أن يخلفه فى زعامته ، كما أنه لم يكن لأحد أن يخلفه فى رسالته .

فان كان ولابد من زعامة بين اتباع النبى عليه السلام بعد وفاته ، فانما تلك زعامة جديدة غير التى عرفناها لرسول الله ﷺ .

طبيعى ومعقول إلى درجة البداهة أن لا توجد بعد النبى زعامة دينية، وأما الذى يمكن أن يتصور وجوده بعد ذلك فانما هو نوع من الزعامة جديد . ليس متصلا بالرسالة ولا قائماً على الدين . هو اذن نوع لاديني.

وإذا كانت الزعامة لادينية فهى ليست شيئاً أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية ، زعامة الحكومة والسلطان . لا زعامة الدين. وهذا الذى قد كان.

(٢) رفعت الدعوة الاسلامية شأن الشعوب العربية من جهات شتى، ولم يكن إلا ريثما أهاب بهم الداعى إلى الاسلام ، حتى استحالوا أمة واحدة من خير الأمم فى فى زمانهم ، واستعدوا بمثل ما يستعد به شعوب البشر لان يكونوا سادة ومستعمرين.

عقيدة صافية من دنس الشرك ، وإيمان راسخ فى أعماق النفس، وأخلاق هذبها رسول الله ، وذكاء أنمته الفطر السليمة ، ونشاط أمدتهم به الطبيعة، ووحدة فى الله قاربت منهم ماتباعد، ولاء مت ماتباين ، وجعلتهم فى دين الله اخواناً . ذلك شأن العرب يوم مات رسول الله عليه الصلاة والسلام.

شعب ناهض كالعرب يومئذ لا يمكن إذا انحلت عنه زعامة النبوة أن يعود راضياً ، كما كان ، أمماً جاهلية ، وشعوبا همجية ، وقبائل متعادية، ووحدات مستضعفة.

إذا هيأ الله لأمة أسباب القوة والغلبة فلابد أن تقوى ولابد أن تغلب، ولابد أن تأخذ حظها من الوجود كاملا غير منقوص ، فلابد إذن أن تقوم دولة العرب ، كما قامت من قبلها دول وقامت من بعدها دول.

(٣) لم يكن خافيا على العرب أن الله تعالى قد هيأ لهم أسباب الدولة، ومهد لهم مقدماتها ، بل ربما كانوا قد أحسوا بذلك من قبل أن يفارقهم رسول الله ﷺ ، ولكنهم حين قبض رسول الله ﷺ أخذوا من غير شك يتشاورون فى أمر تلك الدولة السياسية ،التى لم يكن لهم

مناص من أن يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التى خلفها فيهم النبى عليه السلام «وما كانت نبوة إلا تناسخها ملك جبرية» (١٧٨).

كانوا يومئذ إنما يتشاورون فى أمر مملكة تقام ، ودولة تشاد، وحكومة تنشأ إنشاء. ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الامارة والامراء والوزارة والوزراء ، وتذاكروا القوة والسيف، والعز والثروة، والعدد والمنعة ، والبأس والنجدة . وما كان كل ذلك إلا خوضا فى الملك، وقياما بالدولة . وكان من أثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والانصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض ، حتى تمت البيعة لأبى بكر، فكان هو أول ملك فى الاسلام.

وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبى بكر ، واستقام له الأمر، تبين لك أنها كانت بيعة سياسية ملكية، عليها كل طوابع الدولة المحدثة وانها إنما قامت كما تقوم الحكومات ، على أساس القوة والسيف .

تلك دولة جديدة أنشأها العرب ، فهى دولة عربية وحكم عربى، ولكن الاسلام كما عرفت دين البشرية كلها، لا هو عربى ولا هو أعجمى.

كانت دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية ، وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عليها . أجل ولعلها كانت فى الواقع ذات أثر كبير فى أمر تلك الدعوة . وكان لها عمل غير منكور فى تحول الاسلام وتطوره . ولكنها على ذلك لاتخرج عن أن تكون دولة عربية ، أيدت سلطان العرب . وروجت مصالح العرب . ومكنت لهم فى أقطار الأرض،

فاستعمروها استعمارا . واستغلوا خيرها استغلالا . شأن الأمم القوية التى تتمكن من الفتح والاستعمار .

(٤) كان ذلك أمراً مفهوماً للمسلمين حينما كانوا يتآمرون فى السقيفة عمن يولونه أمرهم . وحين قال الانصار للمهاجرين «منا أمير ومنكم أمير» وحين يجيبهم الصديق رضى الله عنه «منا الأمراء ومنكم الوزراء»(١٧٩).

وحين ينادى أبو سفيان «والله أنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم . ياآل عبد مناف . فيما أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان! أين الاذلان! على والعباس!

وقال ياأبا حسن ، أبسط يدك حتى أبايعك . فأبى على عليه . فجعل يتمثل بشعر المتلمس .

ولن يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان غير الحى والوتد
هذا على الخسف معكوس برمته
وذا يشبح فلا يبكى له أحد»(١٨٠).

وحين سعد بن عبادة رضى الله عنه يرفض البيعة لأبى بكر وهو يقول : والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى ، واخضب سنان رمحى، واضربكم بسيفى ماملكته يدى . وأقاتلكم بأهل بيتى . ومن أطاعنى من قومى. فلا أفعل وأيم الحق . لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس مابايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ماحسابى ، فكان سعد

لايصلى بصلاتهم ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم . فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله» (١٨١).

كان معروفا للمسلمين يومئذ أنهم إنما يقدمون على اقامة حكومة مدنية دنيوية ، لذلك استحلوا الخروج عليها . والخلاف لها . وهم يعلمون أنهم أنما يختلفون فى أمر من أمور الدنيا . لا من أمور الدين . وإنهم إنما يتنازعون فى شأن سياسى. لايمس دينهم . ولا يزعزع إيمانهم.

وما زعم أبو بكر ولا غيره من خاصة القوم أن أمارة المسلمين كانت مقاما دينيا . ولا أن الخروج عليها خروج على الدين . وانما كان يقول أبو بكر «يأيها الناس انما أنا مثلكم ، وأني لا أدرى . لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات . وانما أنا متبع ولست مبتدعا»(١٨٢).

ولكن اسباباً كثيرة وجدت يومئذ قد ألقت على أبى بكر شيئاً من الصبغة الدينية ، وخيلت لبعض الناس أنه يقوم مقاما دينيا، ينوب فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك وجد الزعم بأن الامارة على المسلمين مركز دينى ، ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأن من أهم تلك الأسباب التى نشأ عنها ذلك الزعم بين المسلمين مالقب به أبو بكر من أنه (خليفة رسول الله).

الباب الثالث

الخلافة الاسلامية

ظهور لقب (خليفة رسول الله) - المعنى الحقيقى لخلافة أبى بكر عن الرسول - سبب اختيار هذا اللقب - تسميتهم الخوارج علي أبي بكر بالمرتدين - لم يكن الخوارج كلهم - مرتدين - مانعو الزكاة - حروب سياسية لا دينية - قد وجد حقيقة مرتدون - اخلاق أبي بكر الدينية - شيوع الاعتقاد بان الخلافة مقام ديني - ترويج الملوك لذلك الاعتقاد - لاخلافة في الدين.

★★★

(١) لم نستطع أن نعرف على وجه أكيد ذلك الذى اخترع لأبى بكر رضى الله عنه لقب خليفة رسول الله ، ولكنا عرفنا أن أبا بكر قد أجازه وارتضاه .

ووجدنا أنه استهل به كتبه إلى قبائل العرب المرتدة ، وعهده إلى أمراء الجنود ، ولعلهما أول ماكتب أبو بكر، ولعلهما أول ما وصل الينا محتويا على ذلك اللقب(١٨٣) .

(٢) لاشك فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان زعيما للعرب ومناط وحدتهم . على الوجه الذى شرحنا من قبل . فإذا قام أبو بكر من

بعده ملكا على العرب ، وجماعا لوحدتهم ، على الوجه السياسى الحادث، فقد ساغ فى لغة العرب أن يقال أنه ، بهذا الاعتبار ، خليفة رسول الله، كما يسوغ أن يسمى خليفة باطلاق، لما عرفت فى معنى الخلافة ، فأبو بكر كان اذن بهذا المعنى ، خليفة رسول الله ، لا معنى لخلافته غير ذلك .

(٣) ولهذا اللقب روعة ، وفيه قوة ، وعليه جاذبية ، فلا غرو أن يختاره الصديق ، وهو الناهض بدولة حادثة، يريد أن يضم أطرافها بين أعاصير من الفتن ، وزوابع من الاهواء العاصفة المتناقضة ، وبين قوم حديثى العهد بجاهلية ، وفيهم كثير من بقايا العصبية ، وشدة البداوة ، وصعوبة المراس . لكنهم كانوا حديثى عهد برسول الله صلى الله عليه وسلم، والخضوع له ، والانقياد التام لكلمته ، فهذا اللقب جدير بأن يكبح من جماحهم، ويلين بعض ما استعصى من قيادهم . ولعله قد فعل.

ولقد حسب نفر منهم أن خلافة أبى بكر للرسول صلى الله عليه وسلم. خلافة حقيقية، بكل معناها ، فقالوا ان أبا بكر خليفة محمد ، وكان محمد خليفة الله ، فذهبوا يدعون أن أبا بكر خليفة الله وما كانوا يكونون مخطئين فى ذلك لو أن خلافة الصديق للنبى عليه السلام كانت على المعنى الذى فهموه ولايزال يفهمه كثير غيرهم إلى الآن ، ولكن أبا بكر غضب لهذا اللقب ، وقال «لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله» (١٨٤).

(٤) حمل ذلك اللقب جماعة من العرب والمسلمين على أن ينقادوا لامارة أبى بكر انقياداً دينياً ، كانقيادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يرعوا مقامه الملوكى بما يجب أن يرعوا به كل مايمس دينهم. لذلك كان الخروج على أبى بكر فى رأيهم خروجا على الدين ، وارتداداً عن الإسلام.

والراجح عندنا أن ذلك هو منشأ قولهم أن الذين رفضوا اطاعة أبى بكر كانوا مرتدين ، وتسميتهم حروب أبى بكر معهم حروب الردة.

(٥) ولعل جميعهم لم يكونوا فى الواقع مرتدين ، كفروا بالله ورسوله، بل كان فيهم من بقى على اسلامه ، ولكنه رفض أن ينضم إلى وحدة أبى بكر ، لسبب ما ، من غير أن يرى فى ذلك حرجا عليه ، ولا غضاضة فى دينه . وما كان هؤلاء من غير شك مرتدين ، وما كانت محاربتهم لتكون باسم الدين . فان كان ولابد من حربهم فانما هى السياسة ، والدفاع عن وحدة العرب ، والذود عن دولتهم.

وقد وجدنا أن بعض من رفض بيعة أبى بكر ، بعد أن تمت له السعة من المسلمين ، كعلى بن أبى طالب ، وسعد بن عبادة ، لم يعاملوا معاملة المرتدين ، ولا قيل ذلك عنهم .

(٦) ولعل بعض أولئك الذين حاربهم أبو بكر لانهم رفضوا أن يؤدوا اليه الزكاة ، لم يكونوا يريدون بذلك أن يرفضوا الدين ، وأن يكفروا به ، ولكنهم لا غير رفضوا الاذعان لحكومة أبى بكر ، كما رفض غيرهم من جلة المسلمين ، فكان بديهياً أن يمنعوا الزكاة عنه، لانهم لايعترفون به ، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته .

كما نشعر بظلمة التاريخ وظلمه، كلما حاولنا أن نبحث جيداً فيما رواه لنا التاريخ عن أولئك الذين خرجوا على أبى بكر ، فلقبوا المرتدين ، وعن حروبهم تلك التى لقبوها حروب الردة.

ولكن قبساً من نور الحقيقة لايزال ينبعث من بين ظلمات التاريخ ، وسيتجه العلماء يوما نحو ذلك القبس ، وعسى أن يجدوا على تلك النار هدى.

دونك حوار خالد بن الوليد ، مع مالك بن نويرة ، أحد أولئك الذين سموهم مرتدين ، وهو الذى أمر خالد فضربت عنقه ، ثم أخذت رأسه بعد ذلك فجعلت أثفية(١٨٥) لقدّر.

يعلن مالك ، فى صراحة واضحة ، إلى خالد أنه لايزال على الاسلام، ولكنه لا يؤدى الزكاة إلى صاحب خالد (أبى بكر).

كان ذلك إذن نزاعاً غير دينى . كان نزاعاً بين مالك ، المسلم الثابت على دينه ، ولكنه من تميم ، وبين أبى بكر القرشى ، الناهض بدولة

عربية أئمتها من قريش . كان نزاعا فى ملوكية ملك ، لا فى قواعد دين، ولا فى أصول إيمان.

ليس مالك هو وحده الذى يشهد لنفسه بالاسلام ، بل يشهد له به أيضاً عمر بن الخطاب ، إذ يقول لأبى بكر «إن خالداً قتل مسلماً فاقتله» بل يشهد له بالإسلام أيضاً أبو بكر إذ يجيب «ما كنت أقتله ، فانه تأول فأخطأ» (١٨٦).

ودونك مثالا آخر ، قول شاعر منهم (١٨٧).

أطعنا رسول الله ماكان بيننا فيالعباد الله ما لابى بكر

أيورثنا بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فأنت لاتجد فى هذا إلا رجلا ثائرا على أبى بكر، منكراً لولايته، رافضا لطاعته، آبيا لبيعته، ولكنه فى الوقت نفسه يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعلن إباءه لشىء من الإسلام .

ثم ألسنا نقرأ فى التاريخ أيضا، إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أنكر على أبى بكر قتاله المرتدين وقال «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»(١٨٨).

ذلك قليل مما بقى فى الأخبار من صدق كاد يعفى التاريخ على أثره، ومن حق كاد يذهب بخبره، وأبحث فتم مزيد.

(٧) لسنا نتردد لحظة فى القطع بأن كثيرا مما وسموه حرب المرتدين في الأيام الأولى من خلافة أبى بكر لم يكن حربا دينية، وإنما كان حربا سياسية صرفة، حسبها العامة دينا، وماكانت كلها للدين

ليس من عملنا فى هذا المقام أن نبين لك تلك الأسباب الحقيقية التى كانت فى الواقع مثارا لكثير من حرب الردة، ولانستطيع أن ندعى أضطلاعنا بهذا البحث، إن نحن حاولناه، ولكن يخيل الينا إنك قد تظفر ببعض الأسباب الأساسية المهمة إذا أنت دققت النظر فى أنساب وقبائل الثائرين على أبى بكر، وعرفت صلتهم من قريش، جد البيت القائم بالملك، وإذا أنت فطنت إلى سنن الله تعالى فى الدول الناشئة، والعصبيات المتغلبة على الملك، وكنت مع ذلك بصيرا بطبائع العرب وآدابهم، ثم رزقت التوفيق

(٨) نحن نميل إلى الاعتقاد بأنه قد ارتد بالفعل جماعة من المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك شيء تكاد تقضى به سنن الطبيعة وانظمتها التى عرفنا، وأسهل من ذلك أن نعتقد بأنه قد ادعى النبوة، فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، متنبئون كذابون، وقد نرى في مشاهداتنا أن دعوى النبوة ليست بعيدة من ذهن المضلل الغوى اذا هو لقى من العامة انجذابا، واغوى منهم صحابا واحبابا، ولاشيء أسهل عند العامة من الايمان بنبوة ذلك المضلل الغوى،

إذا هو عرف كيف يغريهم بالضلال، ويمدهم فى الغى. لذلك نرجح أنه قد وجد بالفعل، فى أول عهد أبى بكر، جماعة ارتدوا عن الإسلام، بوفاة النبى عليه السلام، كما وجد من ادعى النبوة فى قبائل العرب .

وقد كان من أول ماعمل أبو بكر نهوضه لحرب أولئك المرتدين الحقيقيين ، والمتنبئين الكذابين. حتى غلبهم وقضى على باطلهم.

لانريد البحث فيما إذا كانت لابى بكر صفة دينية صرفة جعلته مسئولا عن أمر من يرتد عن الإسلام أو لا، ولانريد البحث فيما إذا كانت ثمت أسباب غير دينية حفزت لتلك الحرب عزيمة أبى بكر أم لا.

ومهما يكن الأمر فلاشك أن أبا بكر قد بدأ عمله فى الدولة الجديدة بحرب أولئك المرتدين، وهنا نشأ لقب المرتدين، نشأ لقبا حقيقيا لمرتدين حقيقيين، ثم بقى لقبا لكل من حاربهم أبو بكر من العرب بعد ذلك، سواء كانوا خصوما دينيين ومرتدين حقيقة، أم كانوا خصوما سياسيين غير مرتدين. ومن أجل ذلك انطبعت حروب أبى بكر فى جملتها بطابع الدين، ودخلت تحت اسم الاسلام وشعاره، وكان الانضمام إلى أبى بكر دخولا تحت لواء الإسلام، والخروج عليه ردة وفسوقا.

(٩) ربما كانت ثمت ظروف أخرى خاصة بأبى بكر قد ساعدت على خطاء العامة، وسهلت عليهم أن يشربوا إمارة أبى بكر معنى دينيا.

فقد كانت للصديق رضى الله عنه منزلة رفيعة ممتازة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فى الدعوة الدينية ممتاز. وكذلك كانت منزلته عند المسلمين .

وقد كان الصديق مع هذا يحذو حذو الرسول، ويمشى على قدمه، فى خاصة نفسه، وفى عامة أموره، ولاشك فى أن ذلك كان شأنه أيضا فى سياسة أمر الدولة، فقد سار بها ، مبلغ جهده، في طريق دينى، ونهج بها، على القدر الممكن، منهج رسول الله، فلا غرو أن أفاض أبو بكر على مركزه فى الدولة الجديدة، التى كان هو أول ملك عليها، كل مايمكن من مظاهر الدين

(١٠) تبين لك من هذا أن ذلك اللقب (خليفة رسول الله) مع ما أحاط به من الاعتبارات التى أشرنا إلى بعضها ولم نشر إلى باقيها، كان سببا من أسباب الخطأ الذى تسرب إلى عامة المسلمين، فخيل إليهم أن الخلافة مركز ديني، وأن من ولى أمر المسلمين فقد حل منهم فى المقام الذى كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك فشا بين المسلمين منذ الصدر الأول، الزعم بأن الخلافة مقام دينى، ونيابة عن صاحب الشريعة عليه السلام

(١١) كان من مصلحة السلاطين أن يروجوا ذلك الخطأ بين الناس، حتى يتخذوا من الدين دروعا تحمى عروشهم، وتذود الخارجين عليهم. ومازالوا يعملون على ذلك، من طرق شتى - وما أكثر تلك الطرق لو تنبه

لها الباحثون - حتى أفهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله، ثم ما كان الخلفاء ليكتفوا بذلك، ولا ليرضوا بما رضى أبو بكر، ولا ليغضبوا مما غضب منه، بل جعلوا السلطان خليفة الله فى أرضه، وظله الممدود على عباده، سبحان الله وتعالى عما يشركون ثم إذا الخلافة قد أصبحت تلصق بالمباحث الدينية، وصارت جزءا من عقائد التوحيد، يدرسه المسلم، مع صفات الله تعالى وصفات رسله الكرام، ويلقنه كما يلقن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

تلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين، أضلوهم عن الهدى، وعموا عليهم وجوه الحق، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين، وباسم الدين ايضا استبدوا بهم، واذلوهم، وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة، وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم، فصاروا لايرون لهم وراء ذلك الدين مرجعا، حتى فى مسائل الإدارة الصرفة، والسياسة الخالصة ذلك وقد ضيقوا عليهم أيضا فى فهم الدين، وحجروا عليهم فى دوائر عينوها لهم، ثم حرموا عليهم كل أبواب العلم التى تمس حظائر الخلافة.

كل ذلك انتهى بموت قوى البحث، ونشاط الفكر، بين المسلمين، فأصيبوا بشلل، فى التفكير السياسى، والنظر فى كل مايتصل بشأن الخلافة والخلفاء .

(١٢) والحق أن الدين الإسلامى برىء من تلك الخلافة التى

يتعارفها المسلمون، وبرىء من كل ماهيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة .

والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء ولاغيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لاشأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل، وتجارب الأمم، وقواعد السياسة .

كما أن تدبير الجيوش الإسلامية، وعمارة المدن والثغور، ونظام الدواوين لاشأن للدين بها، وإنما يرجع الأمر فيها إلى العقل والتجريب، أو إلى قواعد الحروب، أو هندسة المبانى وآراء العارفين

لاشىء فى الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى، فى علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا له واستكانوا اليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم، ونظام حكومتهم، على أحدث ما انتجت العقول البشرية، وأمتن مادلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم .

والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه.

الهوامش

(١) سورة الزخرف.

(٢) راجع المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى.

(٣) القاموس والصحاح وغيرهما .

(٤) عبد السلام فى حاشيته على الجوهرة ص ٢٤٢

(٥) ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى توفى سنة ٧٩١ هـ.

(٦) مطالع الانظار على طوالع الانوار.

(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠.

(٨) مقدمة ابن خلدون ص ١٨١.

(٩) مقدمة ابن خلدون ص ١٨١.

(١٠) حاشية الباجورى على الجوهرة.

(١١) روى ذلك عن ابى هريرة - رضى الله عنه - راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ١ ص ٥ طبع مطبعة الشيخ عثمان عبد الرازق بمصر سنة ١٣٠٢ هـ.

(١٢) منه أيضا .

(١٣) وفى خطبة للمنصور بمكة قال : أيها الناس انما أنا سلطان

الله فى ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، اعمل فيه بمشيئته وارادته. واعطيه بإذنه فقد جعلنى الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لاعطائكم وقسم ارزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى الخ راجع العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٩.

(١٤) طوالع الانوار وشرحه مطالع الانظار ص ٤٧٠.

(١٥) ابن خلدون ص ٢٢٣.

(١٦) ابن خلدون ص ٢٠٧.

(١٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠.

(١٨) راجع (فصل فى انقلاب الخلافة إلى الملك) ص ١٩١ وما بعدها من مقدمة ابن خلدون .

(١٩) ص ٤

(٢٠) ابو فراس همام بن غالب بن صعصعة قيل انه تجاوز المائة من سنى عمره وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ وقيل ١١٢ وقيل ١١٤ راجع ديوان الفرزدق طبع المكتبة الاهلية ببيروت.

(٢١) هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين توفى سنة ١٢٥ بالرصافة وكان عمره خمسا وخمسين سنة، راجع تاريخ ابى الفداء ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر.

(٢٢) طريح بن اسماعيل الثقفى مدح الوليد بن يزيد ، ثم مدح ابا

جعفر المنصور، راجع الاغانى ج ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبع مطبعة التقدم بمصر.

(٢٣) هو حادى عشر خلفاء بنى أمية قتل سنة ١٢٦ هـ راجع ابى الفداء ج ١ ص ٢٠٥.

(٢٤) المسلنطح من البطاح ما اتسع واستوى سطحه، وتطرق عليك. تطبق عليك وتغطك وتضيق مكانك. يقال طرقت الحادثة بكذا وكذا اذا أتت بامر ضيق معضل، والحنى كالعصى جمع حنا كعصا، ما انخفض من الارض. والولج كل متسع فى الوادى الواحدة ولجة - ويقال الولجات بين الجبال مثل الرحبات أى لم تكن بين الحنى والولج فيخفى مكانك، أى لست فى موضع خفى من الحسب والوشيج اصول النبت يقال أعراقك واشجة فى الكرم أى نابتة فيه، يعنى انه كريم الابوين من قريش وثقيف. الاغانى ج ٤ ص ٨١ مع تصرف.

(٢٥) نجم الدين عمر بن على القزوينى المعروف بالكاتبى توفى سنة ٤٩٣ هـ.

(٢٦) قطب الدين محمود بن محمد الرازى توفى سنة ٧٦٦ هـ.

(٢٧) القاضى عبد الحكيم السيالكوتى المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ المدفون بسيالكوت ا هـ من كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع.

(٢٨) راجع فى ذلك كله المجموعة التى طبعها الشيخ فرج الله زكى الكردى بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٢٣هـ و سنة ١٩٠٥م.

(٢٩) جرول بن اوس بن مالك توفى فى حدود الثلاثين للهجرة ا هـ من فوات الوفيات ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها.

(٣٠) ابو بكر بن مسعود بن احمد علاء الدين ملك العلماء الكاسانى مات سنة ٥٨٧ ودفن بظاهر حلب ا هـ من الفوائد البهية فى تراجم الحنفية.

(٣١) بدائع ج ٧ ص ١٦

(٣٢) تومس هبز Thomas Hobbes ولد سنة ١٥٨٨ م راجع كتاب AStudent's History of Philosophy; by arther Kenyon Roger; p. 242-250.

(٣٣) جن لك John Locke ولد سنة ١٦٣٢.

The asme book. p. 322 - 346.

(٣٤) مقاصد الطالبين لسعد الدين التفتازانى.

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٨١.

(٣٦) حاتم الاصم الزاهد المشهور البلخى توفى سنة ٢٣٧هـ ابو الفداء ج ٢ ص ٣٨.

(٣٧) واعلم أن الخوارج لم يوجبوا نصب الامام لكن طائفة منهم أوجبته عند الفتنة وطائفة اخرى عند الامن. ا هـ خاشية الكستلانى على العقائد النسفية.

(٣٨) مقدمة ابن خلدون ص ١٨١.

(٣٩) القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد فى علم التوحيد للشيخ محمد بخيت ص ١٠٠.

(٤٠) شرح البيضاوى

(٤١) الكشاف للزمخشرى

(٤٢) (The Caliphate ; by Sir Thomas W. Arnold; printed at the clarendon press oxford; 1924.

(٤٣) المواقف ٢ ص٠٤٦٤.

(٤٤) سورة الانعام.

(٤٥) سعد الدين التفتازانى اسمه مسعود بن عمر، وقيل عمر بن مسعود ولد فى تفتازان بلدة بخراسان سنة ٧٢٢ هـ وتوفى سنة ٧٩٢ بسمرقند . ثم نقل إلى سرخس ا هـ راجع الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ١٣٥ وما بعدها.

(٤٦) الخلافة أو الإمامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا ص١١.

(٤٧) أبو محمد على بن احمد بن سعيد ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ نقلا عن ديباجة كتاب الفصل .

(٤٨) الفصل فى الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ٨٧ .

(٤٩) قال ابن حزم ان هذا الحديث لم يصح ويعيذنا الله من الاحتجاج بما لا يصح . الفصل ج ٤ ص ١٠٨ .

(٥٠) ذكرت كل هذه الاحاديث مفرقة فى رسالة الخلافة أو الامامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا وغالبها مخرج .

(٥١) المواقف وشرحه .

(٥٢) الاجماع حجة مقطوع بها عند عامة المسلمين، ومن أهل الاهواء من لم يجعله حجة مثل ابراهيم النظام والقاشانى من المعتزلة والخوارج وأكثر الروافض الخ . كشف الاسرار .

(٥٣) انكر بعض الروافض والنظام من المعتزلة تصور انعقاد الاجماع على أمر غير ضرورى ... وذهب داود وشيعته من أهل الظاهر وأحمد بن حنبل فى احدى الروايتين عنه الى أنه لا اجماع الا للصحابة.. وقال الزيدية والامامية من الروافض لا يصح الاجماع الا من عترة الرسول عليه السلام أى قرابته .. ونقل عن مالك رحمه الله انه قال لا اجماع الا لاهل المدينة اهـ راجع كتاب كشف الاسرار لعبد العزيز البخارى على اصول الامام فخر الاسلام ابى الحسين على بن محمد بن حسين البزدوى طبع دار الخلافة سنة ١٣٠٧هـ ج ٣ ص ٩٤٦ وما بعدها .

(٥٤) روى ذلك عن الامام احمد بن حنبل . راجع تاريخ التشريع الاسلامى لمؤلفه محمد الخضرى ص ٢٠٦ .

(٥٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٢ .

(٥٦) الخلافة للسيد محمد رشيد رضا ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥٧) كتبنا ذلك يوم كانت الخلافة فى تركيا . وكان الخليفة محمد الخامس، وقد ذهبت بعد ذلك الخلافة من تركيا، وذهب محمد الخامس وغير محمد الخامس من الخلفاء، لما ذهبت تلك القوة التى قلنا إنها أساس الخلافة .

(٥٨) المقدمة ص ١٢٣ .

(٥٩) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨ .

(٦٠) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٦ .

(٦١) فى الجزء الثانى من العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٣٠٧ أن معاوية بن أبى سفيان ، لما أراد أخذ البيعة ليزيد، كتب فى سنة خمس وخمسين الى سائر الامصار ان يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ، فجلس فى اصحابه ، واذن للوفود، فدخلوا عليه ، وقد تقدم الى أصحابه ان يقولوا فى يزيد، فتكلم جماعة منهم ، ثم قام يزيد بن المقفع فقال «امير المؤمنين هذا» الى آخر الجملة المذكورة فوق، فقال معاوية «اجلس فانك سيد الخطباء» اهـ ملخصا .

(٦٢) راجع فى هذا البحث أيضا كتاب الخلافة للسير ارنلد .

(٦٣) ص ٢٨ .

٦٤ - المواقف ص ٤٦٣ .

٦٥ – ص ١٢

٦٦ – سبق نقل هذا الدليل ص ١٣ الخلافة – ٥

٦٧ – سبق ذلك ص ٦

٦٨ – تاريخ الخلفاء ترجم من اللغة الفرنساوية بقلم نخلة بك صالح شفوات ص٦٤ وما بعدها

٦٩ – تاريخ الخلفاء ص ٧٧ .

٧٠ – البخارى فى كتاب الشهادات ص ١٨٠ ج٣ .

٧١ – هو رفاعة بك رافع فى كتابه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٤٢٩ نقلا عن كتاب تخريج الدلالات السمعية .

٧٢ – نهاية الإيجاز ص ٤٢٩ .

٧٣ – راجع الجزء الخامس ص١٦٣ – ١٦٤ بعث على بن ابى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضى الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع – صحيح البخارى

٧٤ – راجع السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٧٥ – نهاية الايجاز

٧٦ – صحيح البخارى ج ٥ ص ١٦١ – ١٦٣ .

٧٧ – المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

٧٨ – منقول من «كتاب ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم

الاصول» للشوكانى ص ١٨٨ وقال المؤلف «محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ » عن هذا الحديث ، أن الكلام فى إسناده يطول ، وقد قيل أنه مما تلقى بالقبول.

٧٩ – راجع السيرة النبوية لدحلان المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ص ٣٦٨ ج ٢ .

٨٠ – رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع ويتصل نسبة بمحمد الباقر بن على بن زين العابدين توفى سنة ١٢٩٠ هـ من كتاب اكتفاء القنوع.

٨١ – انجيل متى من الاصحاح الثانى والعشرين آية «٢١».

٨٢ – راجع تاريخ أبى الفدا ج ١ ص ١٧

٨٣ – راجع المقدمة: فصل فى الخطط الدينية الخلافية ص ٢٠٦ وغيره.

٨٤ – نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ص ٣٥٠ طبع بمطبعة المعارف الملكية تحت نظارة قلم الروضة والمطبوعات سنة ١٢٩١هـ .

٨٥ – البدن واحدتها بدنة وهى ناقة أو بقرة تنحر بمكة. اهـ منه.

٨٦ – سقاية الحاج.

٨٧ – اشارة إلى غزوة مؤتة وسرية أسامة بن زيد إلى أبى.

٨٨ – سورة البقرة.

٨٩ – سورة النحل.

٩٠ – سورة الغاشية.

٩١ – سورة آل عمران.

٩٢– سورة يونس.

٩٣– تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤.

٩٤ – سورة الاسراء.

٩٥ – الكامل للمبرد ج١ ص ٤ المطبعة العلمية.

٩٦ – السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٢.

٩٧ – السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٠.

٩٨ – منه ص ٢٧٢.

٩٩ – السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٨٤.

١٠٠– سورة ص (١٠١) سورة الحج.

١٠٢ – فتح البارى ج ٤ ص ٨٩ المطبعة الخيرية، برواية انا، بدل نحن.

١٠٣ – شرح العسقلانى للبخارى ج٤ ص ٨٨ المطبعة الخيرية.

١٠٤ – سورة البقرة.

١٠٥ – رواه الشيخان بلفظ : كذلك الرسل تبعث فى حساب قومها

من حديث طويل ، راجع تيسير الوصول الى جامع الاصول ج ٣ ص ٣٢٠.

١٠٦ – سورة النساء .

١٠٧ – سورة الانعام .

١٠٨ – سورة الانفال.

١٠٩ – سورة الصافات.

١١٠– سورة المؤمن

١ ١١– سورة النساء .

١١٢ – سورة الطور.

١١٣ – من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى ، أخرجه الشيخان.

١١٤ – من حديث لانس رواه الترمذى

١١٥ – سورة الاحزاب.

١١٦ – سورة الاحزاب.

١١٧ – سورة النساء .

١١٨ – الانعام.

١١٩ - يونس.

١٢٠ - سورة يونس.

١٢١ - سورة يونس.

١٢٢ - سورة الاسراء .

١٢٣ - سورة الفرقان .

١٢٤ - سورة الزمر.

١٢٥ - سورة الشورى.

١٢٦ - سورة ق .

١٢٧ - سورة الغاشية.

١٢٨ - يخيل الى اننى قرأت فى كتاب . لم أستطع الآن أن أتذكره ان الجبار اسم للملك عند بعض العرب . وعليه قوله تعالى (وما أنت عليهم بجبار) ولكن الذى وجدته فيما بين يدى من كتب اللغة أن الملك يسمى جبرا . وقالوا طلع الجبار . وهو الجوزاء . لانها على صورة ملك متوج على كرسى ، وقالوا هو كذا ذراعا بذراع الجبار ، أى بذراع الملك . والله أعلم .

١٢٩ - سورة الاحزاب

١٣٠ - سورة الاعراف.

١٣١ – سورة هود .

١٣٢ – سورة الرعد.

١٣ – سورة الكهف.

١٣٤ – سورة الحج.

١٣٥ – سورة ص.

١٣٦ – سورة السجدة.

١٣٧ – سورة المائدة .

١٣٨ – سورة المائدة

١٣٩ – سورة الأعراف .

١٤٠ – سورة يونس .

١٤١ – سورة الرعد.

١٤٢ – سورة النحل.

١٤٣ – سورة الاسراء .

١٤٤ – سورة مريم.

١٤٥ – سورة طه.

١٤٦ – سورة النور.

١٤٧ - سورة الفرقان.

١٤٨ - سورة النمل.

١٤٩ - سورة العنكبوت.

١٥٠ - سورة الاحزاب .

١٥١ - سورة سبأ.

١٥٢ - سورة سبأ

١٥٣ - سورة فاطر.

١٥٤ - سورة يس .

١٥٥ - سورة ص.

١٥٦ - سورة الاحقاف.

١٥٧ - سورة الفتح .

١٥٨ - سورة التغابن.

١٥٩ - سورة الملك.

١٦٠ - سورة الجن.

١٦١ - السيرة النبوية لاحمد بن زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ ، من كتاب اكتفاء القنوع.

١٦٢ - سورة النور (١٦٣) سورة الفتح.

١٦٤ - سورة الصف.

١٦٥ - سورة هود.

١٦٦ - سورة البقرة.

١٦٧ - رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٢٢ - ١٢٣.

١٦٨ - لاحمد بك شوقى.

١٦٩ - سورة القصص.

١٧٠ - سورة آل عمران .

١٧١ - أبو الفداء ج ١ ص ١٥٢.

١٧٢ - سورة النجم .

١٧٣ - سورة الأحزاب

١٧٤ - مقدمة ابن خلدون ص ١٧٦.

١٧٥ - الفصل فى الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها.

١٧٦ - لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال «أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وان رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات اهـ تاريخ الطبرى ج «١٩٧».

١٧٧ - تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣.

١٧٨ - أى الا تجبر الملوك بعدها اهـ أساس البلاغة.

١٧٩- تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٨.

١٨٠ - منه ص ٢٠٢ وما بعدها.

١٨١ - منه ص ٢١٠ .

١٨٢ - تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١١ .

١٨٣ - راجع تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧.

١٨٤ - مقدمة ابن خلدون ص (١٨١).

١٨٥ - توضع القدر عندما توقد عليها النار للطبخ فوق حجرين متقابلين، ومن خلفهما حجر ثالث، فإذا لم يجدوا حجرا ثالثا أسندوا القدر إلى الجبل . والاثفية بضم الهمزة وكسرها وكسر الفاء ، الحجر توضع عليه القدر والجمع أثافى وأثاف . ورماه الله بثالثة الاثافى أى بالجبل

١٨٦ - راجع ذلك الحديث فى الجزء الأول من تاريخ أبى الفداء ص ١٥٧، ١٥٨.

١٨٧ - هو الخطيل بن أوس أخو الحصين بن أوس . تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣.

١٨٨ - البخارى ج ٢ ص ١٠٥.

الفهرس

(٣)

المراجع التى وقفنا عليها

(١) المفردات فى غريب القرآن

(٢) جوهرة التوحيد وشروحها .

(٣) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .

(٤) طوالع الانوار وشروحها .

(٥) مقاصد الطالبين .

(٦) العقائد النسفية وشروحها .

(٧) القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد فى علم التوحيد للشيخ محمد بخيت .

(٨) المواقف وشروحها .

(٩) الرسالة الشمسية فى علم المنطق وشروحها .

(١٠) مقدمة بن خلدون .

(١١) تاريخ ابى الفداء .

(١٢) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية .

(١٣) فوات الوفيات .

(١٤) تاريخ التشريع الاسلامى لمحمد بك الخضرى .

(١٥) تاريخ الخلفاء .

(١٦) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز .

(١٧) السيرة النبوية .

(١٨) السيرة الحلبية .

(١٩) تاريخ الطبرى .

(٢٠) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع .

(٢١) البدائع فى أصول الشرائع .

(٢٢) الفصل فى الملل والاهوا والنحل .

(٢٣) كشف الاسرار للبزدوى .

(٢٤) ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول .

(٢٥) تيسير الوصول الى جامع الاصول .

(٢٦) العقد الفريد لابن عبد ربه .

(٢٧) ديوان الفرزدق .

(٢٨) الاغانى .

(٢٩) الكامل للمبرد .

(٣٠) الخلافة أو الامامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا .

(٣١) الخلافة وسلطة الامة تعريب عبد الغنى سنى بك .

(٣٢) A Student's Histouy of Philosophy by Arthur Kenyon Roger .

(٣٣) The Khilafet .

by Professor Mohammad Barakatullah (maulavie) of Bhopal; India .

(٣٤) The Khalifate; by Sir Thomas Arnold .

(٣٥) غير ما ذكر من كتب التفسير والحديث والفقه والاصول والتوحيد والاحكام السلطانية والخطب والمقالات التى ظهر كثير منها فى الجرائد العربية والانجليزية.

رقم الإيداع
٢٠٠٠ /١٠٩٠٩
I . S . B . N
977 - 07 - 0907 - 7

هذا الكتاب

بمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على صدور أهم كتاب فى القرن العشرين «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق نعيد طبعه بمقدمة هامة يخطها السفير ممدوح عبد الرازق الذى يعتمد فيها على مذكرات خاصة لم تنشر من قبل للشيخ مصطفى عبد الرازق حيث يلقى الضوء على ظروف تأليف هذا الكتاب الهام الذى أحدث معركة مشبوبة السعير ضد الكتاب ومؤلفه ، تولى كيدها أولو الحكم والسلطان فى ميدانى السياسة والدين معا.

ولم يحدث ان أثار كتاب من اللغط والصراع والضجيج ما أثاره كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فالكاتب هو الشيخ على عبد الرازق ولد عام ١٩٠٨ بقرية ابو جرج احدى قرى محافظة المنيا بصعيد جمهورية مصر العربية بعد أن أتم تعليمه بالأزهر وحصوله على العالميه سافر الى لندن .

وأسرة على عبد الرازق لعبت دوراً ثقافيا مهما بمالها ونفوذها فى المجتمع المصرى فى اواخر القرن التاسع عشر .

وكانت أسرته على صلة وثيقة بالإمام محمد عبده ومدرسته الفكرية ، وكانوا ذوى شأن فى حزب الأمة ، ثم حزب الأحرار الدستوريين .

وقصة هذا الكتاب مرتبطة بالظروف الاجتماعية والفكرية والسياسية ، التى كانت تجتازها مصر وما يحيط بها من ظروف

عالمية .. ففى خارج مصر هناك حدث شغل العالم الإسلامى بأسره وهو اعلان أتاتورك إلغاء الخلافة الاسلامية بتركيا عام ١٩٢٤ ، وكان لهذا الحدث رد فعل فى العالم الإسلامى ، حيث بدأ التفكير فى إعادة الخلافة فى عدد من دول العالم الإسلامى.. وفى مصر سعى الملك فؤاد عام ١٩٢٥ الى تنصيب نفسه خليفة للمسلمين .

وفى وسط هذه الأجواء اصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه «الاسلام واصول الحكم» بحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام ليكون صدمة للملك فؤاد ، فالكتاب يعلن ان الخلافة ليست أصلا من أصول الحكم فى الإسلام وبالتالى فقد الملك الشرعية التى يريد ان يستند اليها ..

ومن هنا فقد اعلن الحرب على الكتاب وصاحب الكتاب فتكونت لجنة من كبار العلماء لمحاكمة الشيخ على عبد الرازق وعزله من القضاء وتجريده من شهادة العالمية ، وقد تسبب هذا الكتاب ايضا في ردود افعال كثيرة مع وضد الشيخ على عبد الرازق .

هذا هو الكتاب المثير الذى حرك الناس معه أو ضده ولكنه كان كتابا جريئا سابقا لعصره تحدى صلف الملك واخمد تطلعاته، ورسم صورة لاخطر المعارك الثقافية والسياسية والاجتماعية فى القرن العشرين

وما زالت آثاره قائمة حتى اليوم ..